ابن رشد الحفيد الفقيه الفيلسوف

يوم دراسي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض - مراكش

الكتـــاب :

ابن رشد الحفيد الفقيه الفيلسوف

المؤلـــف : الدكتور طه جابر العلواني

الطبعـــة : الأولـــى 2006

الطبـــع : المطبعة والوراقة الوطنية –مراكش

الهاتف : 74 37 30 024/ 91 25 30 024

الإيـــداع القانونـــي : 2006/1388

سلسلة التعاون الثقافي
بين جامعة القاضي عياض بمراكش-المملكة المغربية
وجامعة العلوم الإسلامية والإجتماعية
بفيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية

ابن رشد الحفيد الفقيه الفيلسوف

يوم دراسي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض
مراكش

الدكتور طه جابر العلواني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيِّين وعلى آله وصحبه وتبعه وأهتدى بهديه إلى يوم الدين.

ثم أمّا بعد: فيسر "جامعة العلوم الإسلاميَّة والاجتماعيَّة" ووحدة التكوين والبحث: "مناهج الاستدلال والاستنباط وضوابط فقه الواقع في المدرسة المالكية المغربية" بجامعة القاضي عياض بمراكش أن تقدما طباعة باكورة إنتاج مشترك كان جزءاً من ثمار اتفاقيّة التعاون بين جامعة القاضي عياض وجامعة العلوم الإسلاميَّة والاجتماعيَّة و اتفاقيّة التعاون المشار إليها قد أثمرت بفضل الله -منذ عقدها- دورة تكوينيّة استمرت لمدة شهرين في صائفة 2003 عقدت في رحاب جامعة القاضي عياض - كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة وقامت جامعة العلوم الإسلاميَّة والاجتماعيَّة بتمويلها وتحمل نفقات المشاركين فيها طلاباً وأساتذة وقام بعمليّة التدريب والتكوين أساتذة من شعبة

الدراسات الإسلامية في كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة كما شارك في ذلك أساتذة آخرون من جامعات مغربيّة أخرى. وقامت جامعة العلوم الإسلاميَّة G.S.I.S.S مشكورة بالإضافة إلى التمويل بالتبرع بوقت الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني- رئيس جامعة العلوم الإسلاميَّة والاجتماعيَّة وأستاذ كرسي الإمام الشافعيّ للدراسات الفقهيّة والأصوليّة فيها. وقد كانت الدورة من الدورات التكوينيّة النموذجيَّة لطلاب الدراسات العليا.

واستمراراً لتلك الجهود قام الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني بزيارة الجامعة في شهر مايو 2006 للمشاركة في الأيام الدراسيَّة التي تعقدها وحدة التكوين والبحث.

ويسر الوحدة المذكورة: "مناهج الاستدلال والاستنباط وضوابط فقه الواقع في المدرسة المالكية المغربية" جامعة القاضي عياض وجامعة العلوم الإسلاميَّة والاجتماعيَّة:

أن تقدما أول ثمار التعاون المشترك "مداخلة د. العلواني" في "اليوم الدراسي ابن رشد الحفيد الفقيه الفيلسوف".

ولئلا تقتصر فائدة هذه المداخلة القيمة على طلاب وحدة التكوين والبحث: "مناهج الاستدلال والاستنباط وضوابط فقه الواقع في المدرسة المالكية المغربية" على الذين حضروا المداخلة فقد اقترحت الوحدة على جامعة العلوم الإسلاميَّة والاجتماعيَّة تحرير وطباعة تلك المداخلة الهامة والمناقشات التي دارت حولها بنفقتها ليستفيد بها طلاب السلك الثالث في الدراسات الإسلاميَّة في الجامعات المغربيَّة – كلّها- شاكرين الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني والجامعة الموافقة على ذلك. وإلى مزيد من التعاون المثمر إن شاء الله.

مراكش في 24 ماي 2006م

الدكتور عبد الجليل هنوش

عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة القاضي عياض مراكش

بسم الله الرحمن الرحيم

" ابن رشد الحفيد الفقيه الفيلسوف"

يوم دراسي" في كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة القاضي عياض مراكش

طه جابر العلواني

الحمد لله رب العالمين، نستغفره ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا. ونصلى ونسلّم على محمد خاتم النبيِّين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه وتبعه وأهتدى بهديه إلى يوم الدين.

ثم أما بعد: فإنّ الحديث عن ابن رشد الحفيد، أو ابن رشد الجد ليس سهلاً عليّ فإنّني وإن كنت قد درست في الأزهر بعض فصول وأبواب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" التي جعلتموها موضع اهتمامكم ونقاشكم - في هذا اليوم الدراسيِّ-

لكنّني مع ذلك لم اشتغل - فيما سبق- على شيء من أعمال ابن رشد أو سيرته أوحياته؛ لذلك فإنّني لا أجد في نفسي الجرأة الكافية على تناول هذا الموضوع بالدقة التي يتناوله بها أساتذتكم الأفاضل الذين قد أعد كل منهم العدة لتناول جانب مهم من جوانب علم وسيرة وفقه وفلسفة هذا العالم الموسوعيّ من علماء أمتنا، بل ومن مفاخرها. فلو اقترحتم عليَّ الحديث عن الإمام الشافعي ورسالته أو إمام الحرمين وبرهانه، أو كتابه "الغياثيّ" أو الغزالي ومستصفاه أو إحيائه، أو الرازي ومحصوله أو تفسيره لهان الأمر، ولوجدتموني سمحاً بذاك مبيناً.

ومع ذلك فسأحاول أن اقتحم العقبة وأقول ما ييسّره الله لي في هذا المجال. فلقد تنبَّهت - في ظلال هذا اللقاء- إلى رابط هام يربطني بهذا الفقيه الفيلسوف لم التفت إليه في ما مضى، ولم يشد انتباهي، ألاّ وهو الاهتمام المشترك "بالفقه الخلافيّ" وإن كانت جهة الاهتمام منفكّة - كما يقولون- فقد اهتممت قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً "بأدب الاختلاف" وفيه أعددت كتابي "أدب الاختلاف" الذي نشر في سلسلة "كتاب الأمَّة" التي

أشرف عليها الأخ الصديق الأستاذ عمر عبيد حسنة. ثم طبعه المعهد العالمي للفكر الإسلامي في عدة طبعات، وترجم إلى لغات عديدة، وتبنَّت تدريسه بعض الجامعات. ولم أكن - حين أعددته- أتوقع له كل ذلك الانتشار ولكن يبدو أنّه قد لبَّى حاجة، وسدّ فراغاً كان في حاجة إلى ما يسدّه.

أما ابن رشد فقد حمل الهم نفسه ولكن من زاوية أخرى وهي الزاوية التي لاحظ منها انشغال الفقهاء - في عصره- في الجزئيّات، دون إلتفات يذكر إلى تقرير الأدلّة، وبيان المدارك الفقهيَّة، وأنَّ تقرير جمهرتهم لمسائل الفقه شابه الكثير من التداخل أو الخلط، فرأى بثاقب نظره أنّ تناول الفقه بتلك الطريقة قد أدى إلى عزل الفقه عن أصوله ومصادره. وأن العناية بتناول "الفقه" بتلك الطرق قد صار جزءاً من عوامل تعطيل ملكة الاجتهاد فقرّر أن يكتب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" بمنهج مغاير هو منهج "الفيلسوف الفقيه" الذي يعمل على لفت أنظار الفقهاء إلى "فلسفة الفقه" لعل ذلك يؤثّر في قليل أو كثير في أساليب تعاملهم مع مسائل الفقه، وأدلته: ولذلك فقد ركز

على أسباب الاختلاف منبِّهاً إلى زوايا النظر في الأدلة. كما أبدى اهتماماً خاصاً بالأحكام الفقهيَّة المعلَّلة بالمصالح والمفاسد؛ لأنَّ هذين الجانبين هما أهم ما يشد نظر الفيلسوف في المسائل الفقهيّة، وهما الميدان الذي يستطيع أن يبرز فلسفته في الفقه فيهما. ولذلك قال في مقدمة "البداية": "وأما أسباب الاختلاف بالجنس فستة: أحدها تردُّد الألفاظ بين هذه الطرق الأربع: أعني بين أن يكون اللّفظ عامّاً يراد به الخاصّ، أو خاصّاً يراد به العام، أو عاماً يراد به العام، أو خاصّاً يراد به الخاصُّ، أو يكون له دليل خطاب أو لا يكون له. والثاني الاشتراك الذي في الألفاظ، وذلك إمَّا في اللّفظ المفرد مثل "القُرءِ" الذي يطلق على الأطهار وعلى الحيض، وكذلك لفظ الأمر هل يحمل على الوجوب أو الندب؟ ولفظ النهي هل يحمل على التحريم أو الكراهة؟ وأما في اللّفظ المركب مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور:5] فإنّه يحتمل أن يعود على الفاسق فقط، ويحتمل أن يعود على الفاسق والشاهد، فتكون التوبة رافعة للفسق ومجيزة شهادة القاذف. والثالث اختلاف الإعراب. والرابع تردُّد اللفظ بين حمله على

الحقيقة أو حمله على نوع من أنواع المجاز التي هي: إما الحذف، وإما الزيادة، وإما التقديم، وإما التأخير، وإما تردُّده على الحقيقة أو الاستعارة. والخامس إطلاق اللفظ تارة وتقييده تارة مثل إطلاق الرقبة في العتق تارة، وتقييدها بالإيمان تارة. والسادس التعارض في الشيئين في جميع أصناف الألفاظ التي يتلقى منها الشرع الأحكام بعضها مع بعض. وكذلك التعارض الذي يأتي في الأفعال أو في الإقرارت، أو تعارض القياسات أنفسها، أو التعارض الذي يتركب من هذه الأصناف الثلاثة: أعني معارضة القول للفعل أو للإقرار أو للقياس، ومعارضة الفعل للإقرار أو للقياس، ومعارضة الإقرار للقياس".

ولا يعني هذا أن الفيلسوف الفقيه قد أضاف إلى أسباب الاختلاف أو حذف منها، لأنّه كما نص في بداية "مقدّمة البداية" أنّه أراد:" أن يثبت فيه لنفسه على جهة التذكرة من مسائل الأحكام المتّفق عليها، والمختلف فيها بأدلتها. والتنبيه على نكت الخلاف فيها ما يجرى مجرى الأصول والقواعد..." ففيه إضافة إلى بيان "أسباب اختلاف الفقهاء" تركيز على جانب هام منها

يستخلص الفيلسوف الفقيه به، أو يميّز بين ما يجري مجرى الأصول والقواعد من تلك الأسباب؛ لأنّ ذلك هو ما سوف يفيد المجتهد في استنباط أحكام المسائل المسكوت عنها في الشرع.[1]

المهم أنّني قد وجدت قضيَّة مشتركة - ولو لأدنى مناسبة- كما يقول الأصوليّون يمكن أن تشكل لي دافعاً لأن أدلي بشيء حول فيلسوف قرطبة وفقيهها.

لقد تناول الأساتذة الأفاضل جوانب هامَّة من هذه الشخصيَّة المتميّزة من الشخصيَّات التي صنعها الإسلام. وما يزال هناك الكثير ممّا يمكن قوله في هذا الإمام الجليل. والفيلسوف الفقيه العظيم. ولعل لي أن أتناول - في هذه المناسبة- شيئاً من

---

[1] أسباب اختلاف الفقهاء مهما اختلفوا في تفاصيلها وأعدادها فإنّ مردها إلى سببين أساسيَّين قرّرهما الإمام الشافعيّ هما: الأول: الاختلاف في الإطلاع على النص وثبوته. الثاني: الاختلاف في دلالته ومحمله. فالأول وسائليّ والثاني موضوعيّ. وقد أوصلها ابن حزم إلى عشر. وابن السيد البطليوسي إلى ثمانية. وابن تيميَّة حصرها في ثلاثة. كما حصرها ابن رشد في الستة التي تقدم ذكرها، واعتبرها مستغرقة لسائر الأسباب التي لاحظها في المسائل المختلف فيها بين الفقهاء ولكن ميزة ابن رشد أنّه حين دخل في تفاصيل الأسباب وهو يحلّل المسائل الخلافيّة، قد كشف عن كثير من الأصول والقواعد الهامَّة التي تحتاج إلى رصد ودراسة.

تلك الجوانب التي لم يلتفت إليها في دراسة فقيهنا الفيلسوف، وكتابه الهام " بداية المجتهد".

المؤثّرات الأساسيّة في مسائل الفقه:

1-المـــؤثـــرات اللّفظيــــة:

لقد كانت بؤرة الاهتمام والتركيز فيما سمعته تدور حول القضايا الفقهيَّة باعتبارها قضايا ومسائل ناتجة عن فهم واستنباط من نصوص لفظيَّة تتحكم في ذلك الفهم والاستنباط دلالات الألفاظ، وعوارض تلك الألفاظ الذاتيَّة: من عموم وخصوص وإجمال وبيان وإطلاق وتقييد وما إلى ذلك.

كما أنّ منهج ثبوت النصّ أو الرواية شكل الركن الثاني من الأركان- التي حظيت بالاهتمام.

2- المؤثّـــــرات المعنويّــــة:

أمّا الأمور المعنويَّة والعقليَّة ودورها في "فقه الفقهاء" وأسباب اختلافهم فلم ألحظ شيئاً من العناية بها فيما سمعته.

في حين أن "إمام الأصوليِّين" الإمام الشافعيَّ قد إلتفت في وقت مبكر إلى هذا الجانب فنبَّه إلى أمر في غاية الأهميَّة لم يدرجه الباحثون في "أسباب الاختلاف" ضمن تلك الأسباب حيث نبّه - رحمه الله- إلى "تفاوت مدارك المجتهدين" وهذا التفاوت في المدارك المعرفيَّة والعلميَّة والاستعدادات العقليَّة والنفسيّة للمجتهد أمر في غاية الأهميَّة في مجمل "العمليّة الاجتهاديّة" كلّها. إضافة إلى كونه سبباً من أسباب "الاختلافات الفقهيَّة" لا يمكن تجاهله.

وإذا اخترنا من تعريفات "الاجتهاد" تعريف ابن السبكي، وهو "بذل الفقيه النفس الوسع حتى يعجز عن بذل المزيد"[2] "فالفقيه النفس" وإن فسّروه بأنّه من صار الفقه له سجيَّة أو ملكة أو نحو ذلك؛ بيد أنّه ترجمة لنحو قولنا: "بذل الفقيه (الذي تؤهله مداركه وقدراته الذهنيَّة وتجاربه وطاقاته ومؤهّلاته) الوسع للوصول إلى معرفة حكم فقهيّ". وهو ما يفيد قول الإمام الشافعيّ في " تفاوت المدارك العلميَّة عند المجتهدين".

[2] انظر المحصول في علم أصول الفقه بتحقيقنا الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة 1992 بيروت 6/6 المتن والهامش.

إضافة إلى ذلك فإنّ هناك كثيراً من المؤثّرات التي تؤثّر في مداركنا وفي أفكارنا، بل إنّ تلك المؤثّرات قد تلوِّن أو تغيِّر فيما تنقله حواسّنا إلى قوى الوعي والإدراك فينا رغم ثقه الكثيرين في المحسوس، واعتبار الإدراك الحسِّيّ من أعلى مراتب الإدراك، أو أنّه أعلاها لدى البعض بإطلاق.

وهذه المؤثّرات تتجاوز الألفاظ واللسان في مجالات الفهم والفقه والإدراك. فالله - تبارك وتعالى- قد قال: ﴿**وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا**﴾ [الفرقان:40] فمشركو مكة كانوا يمرون وهم في طريقهم إلى الشام على قرية قوم لوط المدمرة - التي أمطرت مطر السوء- ويمرون على مصارع المكذبين ويرون ما حل بهم وبديارهم. كما اسمعناهم الكثير عن مصارع الآخرين، لكن الحجاب الذين ران على قلوبهم لعدم إيمانهم بالآخرة وليأسهم من البعث والنشور يحول بينهم وبين استفادة العبرة والدرس من أي شيء يرونه أو يسمعونه. ويعطل مصادر الإدراك وقوى الوعي فيهم. كما أن هناك آيات كثيرة نبهّت إلى المؤثّرات التي تتدخل

في قوى الوعي لدى الإنسان، وتؤثّر فيها تأثيرات سلبيَّة أو إيجابيَّة في بعض الأحيان: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:179] ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:198] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (21) وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (22) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (23) وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾. [الأنفال:20-23]

وقد لا نستطيع في مداخلتنا هذه استقراء سائر المؤثّرات المعنويَّة التي يمكن رصدها في هذا الموضوع والتي لا بـــد من أخذها بنظر الاعتبار في دراستنا لاجتهادات المجتهدين، وتحليلنا للقضايا الفقهية. فإنَّ بعض هذه المؤثّـــرات وإن ذكرت في معرض الحديـــث عن الشرك والمشركين، وعوائق الإيمـــان

فإنّها - في جملتها- مؤثّرة في وسائل الإدراك، وقوى الوعي. وفي مقدمة هذه المؤثّرات التي نود إبرازها هنا:

1- **النماذج المعرفيَّة للمجتهدين** : فالمجتهد - وهو ينظر فيما يعرض له أو يعرض عليه من مسائل الفقه، له نموذج معرفيٌّ كليٌّ يتكون برؤيته الكليَّة ومعتقده، ومسلّماته، وتصوّره الشامل-. وله نموذج آخر جزئيٌّ يكون خاصّاً بالقضيَّة المعروضة عليه ذاتها يتكون هذا النموذج الجزئيُّ الخاصّ بعد قيامه بعمليّات سبر وتقسيم وحذف وإضافة لتمييز ما هو ذاتيٌّ عما هو عرضيٌّ في أركان القضيّة الفقهيَّة ليكون لديه باستعمال النموذجين ما يعتبر تكييفاً للقضيَّة يمكّنه من الوصول إلى الحكم الفقهيّ الذي يناسبها. وهذا النموذج المعرفيّ بشقّيه يؤثّر في نظره في الدليل، وفي نظره إلى المكلّف وظرفه الزمانيّ والمكانيّ، وفي نظره في الفعل ذاته وآثار ذلك الفعل. وكل هذه الأمور مجتمعة تؤثّر في اجتهاده وفي الحكم الفقهيّ الذي يجتهد ليتوصَّل إليه.

2- **الرؤية الكليَّة للكون والإنسان والحياة**، وخالقها، ورؤية المجتهد لطبيعة الفعل الإنسانيّ، وكيف يصدر الفعل عن

الإنسان؟ فهذه الرؤية الكليَّة هي الدعامة الأساس للنموذج المعرفيّ من ناحية، كما أنَّ لها في خصوصها آثاراً هامَّة في بناء تصوّر المجتهد لكل ركن من أركان القضيَّة الفقهيَّة، ثمَّ لتلك الأركان مجتمعة.

3- **العقيـــــدة**: العقيدة أخصُّ من الرؤية الكليَّة؛ إذ أنَّ العقيدة تطلق على ما يعتقده الإنسان ويربط عليه قلبه، بحيث يصبح من المسلّمات التي لا يقبل فيها جدلاً. والعقيدة تحدّد لصاحبها زاوية النظر إلى الأمور كلّها، ومنها الأمور الاجتهاديَّة. وقد تجعل من الأمر الاجتهاديّ الظنّي - إذا انعكست عليه- حقيقة موثوقاً بها، أولا يتطرق الشك إليها، لأنّها قد تصبح حقائق مؤكدة لا نقاش فيها.

4- **الثقافات والأعراف والعادات والتقاليد**. وتأثيرات كل من هذه الأمور على عقليَّة المجتهد ونفسيَّته أمور لا تخفى، ولبروز تأثيراتها عدها بعضهم في الأصول التي يرجع إليها في عمليّة الاستنباط، فقال بعضهم "بالعرف"، وقال بعضهم "بالعادة". والثقافات والتقاليد مرد كثير من جوانبها إلى

الأعراف والعادات. وقد أدرجوا كثيراً من مسائل الفقه فيما يحتكم فيه إلى الأعراف والعادات بضوابط معيَّنة. وأحياناً تحدث الأعراف والعادات بعض المسلَّمات التي تتحكم في اجتهاد المجتهد قبل المنهج وتحديده والنظر فيه.

5- **المنهـــــج**: هو - في لغتنا- الطريق الواضح. أماَّ فيما نحن فيه فهو مجموعة من القواعد والضوابط التي تعصم الذهن من الوقوع في الخطأ في التفكير، وذلك بمراعاة شروط ترتيب المقدّمات، والنظر في سلامتها للوصول بها إلى نتائج معتبرة علميّاً، ثم التمكُّن من البرهنة على صحة تلك النتائج. ومع أنّ للمنهج تعريفات فنيَّة كثيرة، إلاّ أنّ ما ذكرنا يقرِّب للذهن وظيفة المنهج، ومعناه على سبيل الإجمال. ويوضِّح تأثُّر المجتهد به، ومدى تأثيره في العمليّات الاجتهاديَّة.

وحين ندرس فقه شخصيَّة فلسفيَّة مثل ابن رشد فلا بد لنا من ملاحظة كثير من الأمور التي هي وراء اللَّفظ مثل هذه؛ لأنّ فيلسوفاً مثله يناقش اختلاف الفقهاء، ويحلّل أسباب ذلك الاختلاف، ويجتهد في الوصول إلى العلل والمصالح والأقيسة

والمدارك التي كانت وراء اختلاف مذاهبهم وأقوالهم وتنوعها فإنَّه ليفعل ذلك يقوم بعمليّات ذهنيَّة عديدة لتحقيق أهدافه في تلك الدراسة لا يستغني - وهو يمارسها- عن الرجوع إلى تلك الأمور الخمسة التي ذكرنا ونحوها.

بين القضايا الفقهيَّة والقضايا الاجتماعيَّة:

هناك أمور أخرى لا بد لنا من ملاحظتها عندما نقترب من القضايا الفقهيّة، ومنها: ضرورة ملاحظة نقاط الاتّصال والانفصال بين القضايا الفقهيَّة والقضايا الإجتماعيَّة؛ ففقيهنا الفيلسوف قد جاء في موازناته وترجيحاته - وهو يعاير مذاهب الفقهاء- كثير من التصريحات والتلميحات التي يمكن أن يستفاد منها هذا الأمر الهام الجليل.

أولاً: القضايا الفقهيَّة لتعدُّد وظائفها، وتنوّع موضوعاتها قد يغفل الفقيه عن ملاحظة جانب "التناسق" بينها، وهو جانب مهم لا بد من حضوره في الذهن الفقهيّ لئلا ينفرط عقد

المسائل فتصبح وكأنّها شظايا جزئيَّة متناثرة لا يربط بينها رباط. وهنا يمكن "للنموذج المعرفيّ أنّ يؤدي إلى التناسق.

ثانيـــاً: في أيَّة قضيّة فقهيَّة لا بد أن نبرز دور "المرجعيَّة الملزمة" ونظهره بوضوح، وذلك بإظهار الدليل الذي توصَّلنا إلى الحكم به، ومرجعيَّته فالدليل لا ينبغي أن يتَّخذ مجرّد شاهد نستشهد به لتعزيز ما توصَّلنا إليه بدونه أو بغيره - كما فعل كثير من متأخري الفقهاء-؛ ذلك لأنَّ مرجعيَّة إنشاء الأحكام والكشف عنها منحصرة في الكتاب المجيد. ومرجعيَّة البيان اتِّباعاً وعملاً وقولاً منحصر في السنَّة النبويَّة -التي تنفرد- وحدها بصفة البيان الملزم للقرآن الكريم.

ولذلك قال علماؤنا: "إن كنت مدَّعياً فالدليل، وإن كنت ناقلاً فالصحة".

ثالثـــا: القضايا الفقهيَّة ترتبط بالجزاء ثواباً بأنواعه، وعقاباً بأنواعه. فهناك جوانب أخرويَّة في الثواب والعقاب. وهناك جوانب دنيويَّة، ومنها اعتبار صحة الشيء أو بطلانه وفساده واعتبار كفايته، أو عدمها، وذلك بإلغائه، والمطالبة

بإعادته أو قضائه، وتختلف هذه الأمور في كل جانب من جوانب الفقه، فهي في العبادات غيرها في المعاملات أو الجنايات أو السير وهكذا، وإذا كانت القضايا الفقهيَّة تختلف عن نظم المجتمعات؛ فإنّ لذلك أسباباً:

فمن أسباب ذلك - إضافة إلى ما تقدم- تنوّع واختلاف نظم وقواعد النظم التي تقوم المجتمعات عليها. فهناك قواعد للنظام الدينيّ للمجتمع، وقواعد للنظام الأخلاقيّ وللفنيّ والأدبيّ والمهنيّ مثلها. وتنظيم المجتمع أيّ مجتمع يقوم على ذلك كلّه. ولكل منها دوره في ذلك التنظيم. ولا بد أن تكون عمليّة الاتّصال والانفصال بين "القضايا الفقهيّة والقضايا الإجتماعيّة" منضبطة بمعايير غاية في الدقّة لئلاّ يمتد سلطان الفقه إلى سائر تلك المجالات فتختزل تلك النظم -كلّها- إلى قائمة فتاوى في "الحلال والحرام" أو قائمة تصنّف باختزال -أيضاً- ما هو شرعيّ وما ليس بشرعيّ، وبدلاً من أن تصبح نظم المجتمع دعائم يقوم عليها تماسكه وقوته ووحدة أبنائه أو أعضائه تصبح هذه القضايا وسائل لتنازعه وتخاصمه، وإثارة عوامل التراع والصراع فيه.

وفي هذا الإطار نستطيع أن نفهم الهدي النبويَّ الكريم في النهي "عن قيل وقال وكثرة السؤال"[3] مبيِّناً أن ذلك سبب من أسباب هلاك الأمم.

إنّ المتقدمين من علمائنا – رضوان الله عليهم - اتّباعاً لقوله - صلى الله عليه وآله وسلّم- : "الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات"[4] لم يكونوا يرغبون بمدِّ مساحات الغطاء

---

[3] كتب المغيرة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله حرم ثلاثا ونهى عن ثلاث حرم عقوق الوالدين ووأد البنات ولا وهات. ونهى عن ثلاث: قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال" أخرجه مسلم في صحيحه (1340/3/ح1715) والبخاري في صحيحه (538/2/ح1407) وابن حبان في صحيحه وابن حنبل في مسنده ومالك في الموطأ والطبراني في معجمه الكبير والبيهقي في سننه الكبرى.

[4] سمع النعمان بن بشير بن سعد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب الناس بحمص وهو يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" الحلال بين والحرام بين فذكر بمثل حديث زكريا عن الشعبي إلى قوله يوشك أن يقع فيه" أخرجه مسلم في صحيحه (1340/3/ح1715) والبخاري في صحيحه (538/2/ح1407) وابن حبان في صحيحه وابن حنبل في مسنده ومالك في الموطأ والطبراني في معجمه الكبير والبيهقي في سننه الكبرى.

الفقهي وكانوا ينبزون الراغبين بذلك بأنّهم "الأرأيتيُّون" أي أولئك الذين يفترضون وقوع قضايا أو نوازل قبل أن تحدث ليصنِّفوها ويضعوا عليها علامة فقهيَّة: أيّ حكماً فقهيّاً قبل وقوعها، وكان المتقدمون يرون هذا الأسلوب مدعاة لخذلان الفقيه؛ لأنّ النظر في النازلة بعد أن تحدث مدعاة للفهم الأشمل والأدق، والكشف عن جميع جوانب المسألة، وتعرّض لرحمة الله وعونه على الوصول إلى وجه الحق والصواب فيها!!

❖ هنا يمكن أن نثير تساؤلاً برز بعد ترجمة المنطق والفلسفة حول ما إذا كان "الفقه" علماً أو هو فنٌّ أو مجال من مجالات المعرفة فحسب؟! و"العلم" عند علماء تلك المرحلة يطلق على مجموع مسائل ذلك الحقل المعرفيّ، ويطلق على الملكة التي يتصف المتخصّص في ذلك المجال بها نتيجة طول الممارسة. أما القواعد فقد امتازت عن الفقه، وصارت قائمة بذاتها سواء منها القواعد الأصوليّة أو القواعد الفقهيَّة.

وأمّا الملكة فإنّ من مهر في هذا الجانب من جوانب المعرفة فإنّه يقال له: "الفقيه" أو "الفقيه النفس" لمن صار الفقه له

سجيَّة. أما مجموع المسائل التي ألف الفقهاء حصرها في مجموعة كتب مثل "الطهارة والعبادات والمعاملات والجنايات والنكاح والسير والأقضية والأطعمة..." إلخ فهي جوهر الفقه وأسّه. وهذه المسائل يمكن اعتبارها علماً قائماً بذاته. وهذا العلم قد أنتج بفكر قائم على محاولة تقديم صورة كاملة عن "كيفيَّة تديُّن الإنسان النسبيّ بالدين المطلق". فكأن "الفقيه النفس" أو الفقيه المجتهد يقول للناس: "هذا الدين قد عرفتموه وآمنتم به، وبضرورة ممارسته؛ ومهمَّتي أن أبيِّن لكم كيفيَّة التديُّن به وممارسته" فالفقه بهذا يصبح "علم التديُّن".

وعلى ذلك فإنّ المهارة في هذا العلم "علم التديُّن" تتوقف على العلم بمنهجين هامَّين جداً، هما:

- ☒ المنهج التاريخيّ
- ☒ المنهج التأصيليّ

وبتمام تصوّر طالب "علم الفقه" لهذين المنهجين يكتسب التصور "لعلم الفقه" أو "علم التديُّن"؛ ذلك أنّ "المنهج التاريخيّ"

يمدنا بسائر المواد الأوليّة التي يتوقف عليها بناؤنا لذلك التصور.

فهو يوضح لنا: كيف نشأ الفقه، وطبيعة موارده ومصادره، وكيف تكونت مسائله وقواعده ورجاله ومدارسه. وما إلى ذلك.

المصادر الأساسيّــــة:

والمنهج التأصيليّ يوجهنا إلى المصادر الأساسيَّة، وهي -كما أوضحنا- مصدر منشئ وكاشف وحيد وهو القرآن. ومصدر بيانيٌّ له وتطبيقيٌّ وهو السنَّة.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام:57]

﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام:114]

﴿وَهَــذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:155]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران:23]

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:105]

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41) يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (42) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ

بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (43) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا
أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (44) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ
يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ
وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ
تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ
يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (45) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ
بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ
كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ (46) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (47) وَلْيَحْكُمْ
أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ
فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (48) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا

أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (49) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (50) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:50/40]

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:40][5]

---

(5) وراجع دراستنا "حاكميّة القرآن" المطبوع في القاهرة وواشنطن، ومقدمتنا لكتاب "الحاكميَّة الإلهيَّة رسالة دكتوراه أعدها د.هشام جعفر. ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي سلسلة "رسائل جامعيَّة"

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (90) إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:89/90].

وأمّا المصدر المبيِّن على سبيل الإلزام فهو السنَّة النبويَّة الصحيحة الثابتة وحدها. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44] ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:64] وهذه (اعني انحصار المصادر بمصدر واحد منشئ وكاشف عن العقيدة والشريعة. ومصدر واحد تطبيقيّ تنفيذيّ مبيِّن لكيفيّة اتِّباع الكتاب وتطبيقه) ميزة من أهم مزايا هذه الرسالة الخاتمة، وهي التي أعطتها المرونة والاتّساع، والقدرة على الاستجابة لكل مستجدات الأزمنة والأمكنة والانساق الحضاريّة والثقافيّة وحاجات الأمم؛ لأنّها تعتمد على قواعد كليَّة، ومقاصد عليا، ولم تشتغل

بالتفاصيل الجزئيَّة الدقيقة إلاّ تلك التي هي مظنَّة الحيف البشريّ فاحتاجت إلى النصِّ عليها. كالأنكحة والمواريث.

أمّا ما جاء الأصوليّون به - بعد ذلك- من أدلة إضافيَّة؛ فإنّ جلّها أقرب ما تكون إلى محدِّدات منهاجيَّة، بعضها يمكن أن يستند إلى الكتاب الكريم، أو يندرج تحت عموماته وكليَّاته، أو يمثِّل ما ينبّه إليه من السنَّة في إطار عمليّات الاتّباع النبويّ والبيان لما في الكتاب، لكنّها لا تنتج أحكاماً ملزمة استقلالاً.

والكتاب الكريم وبيانه النبويُّ في السنَّة هما متكاملان متلازمان المصدر الوحيد لما يمكن تسميته "بالحقيقة الفقهيَّة".

ولذلك كان الحلال بيِّناً والحرام بيِّناً. وكانت مساحة المشتبهات محدودة جداً؛ وهي الأمور التي تندرج تحت اجتهاد الفقيه النفس أو المجتهد.

خصائص الشريعة:

❖ إن الفقيه - سواء أكان مجتهداً أو مفتياً أو أستاذاً يدرس لطلبته هذه المادة - إذا لم يلتفت إلى "خصائص الشريعة

الخاتمة" ويتخذ منها جزءاً من منهج "المراجعة والتصديق على الفقه" فقد أصيبت مقاتله. وهذه الخصائص كثيرة يجب إلتماسها في آيات الكتاب مفرقة ومجتمعة؛ وهذه الخصائص قادرة – تماماً- على أن تطوي فقهنا – كلّه- تحت أجنحتها فتراجعه وتنقده وتصدِّق عليه وتهيمن عليه، وتزيل أو تقلّل – في الحد الأدنى- من آثار الضعف والنّسبيَّة البشريَّة إذا عرف الفقيه كيفيَّة إعمالها.

ومن المواضع التي وردت فيه مفرقة قوله تعالى:﴿ **يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة:185]

﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الحج:78]

﴿**يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾ [النساء:28]

﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء** ﴾ [البقرة:29]

﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:286]

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ [التغابن:16] ثم نجدها مجتمعة - تقريباً- في سورة الأعراف: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (156) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (157) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ

﴿وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:157/155] .

أصول كليّة:

ولذلك فإنّ كثيراً من علمائنا قد انطلقوا من تلك الخصائص في وضع بعض القواعد الكليَّة الهامّة مثل "الأصل في الطيّبات الحل" "الأصل في المنافع الإباحة" "الأصل في المضار التحريم" "الأصل في الخبائث التحريم" "لا تكليف بما لا يطاق" إلى غير ذلك من قواعد.

المقاصد وضرورة مراعاتها:

❖ كما أن غفلة الفقيه عن المقاصد والغايات، وخاصَّة "المقاصد القرآنيَّة العليا الحاكمة" "لا تقل خطراً على فقه الفقيه من الغفلة عن "خصائص الشريعة الخاتمة". وهذه "المقاصد القرآنيَّة العليا الحاكمة" يمكن حصرها في مقاصد ثلاثة

" التوحيد، والتزكية، والعمران"[6]؛ فالتوحيد حق الله على العباد والدعامة الأساس لفقه الدين والتديُّن: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:36].

وأمّا "التزكية" فهي أهم نتائج التوحيد، وأهم ما يبرز أثر التوحيد فيه، وأهم المؤهّلات التي تجعل الإنسان قادراً على الوفاء بالعهد الإلهيّ، والقيام بحق الاستخلاف، والتمكُّن من حمل الأمانة، والنجاح في اختبار الابتلاء، والتمكُّن من إحياء الأرض وعمارتها ماديّاً ومعنوياً.

وأمّا "العمران" فهو نصيب الكون المسخَّر وغاية الاستخلاف، والمقصد الأسنى منه ومن التسخير، وبه يسير الكون والإنسان والحياة - كلّها- والأحياء - أجمعون- في قافلة تسبيح موحّدة للواحد الأحد: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ

---

[6] قد شرعنا في التأصيل لهذه المقاصد القرآنيَّة الحاكمة وتم نشر "كتابنا في التوحيد" ويليه إن شاء الله. دراستنا في "التزكية" ودراستنا في "العمران"

بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء:44]

وهذه المنظومة المقاصديّة القرآنيَّة العليا الحاكمة هي التي تؤسّس "للفقه الأكبر"، وتضبط حركة الفقه، وتعطيه الوجهة والقبلة، وتنفي عنه الشكليَّة والجزئيَّة، والنَفَسَ القانونيّ الجاف الجامد.

الجمع بين القراءتين والاستدلال:

❖ وفي ميدان النظر في الأدلة إذا فات الفقيه مبدأ "الجمع بين القراءتين" فلن يغني عنه في استدراك ذلك إلاّ اكتشافه، والعودة إليه؛ " فالجمع بين القراءتين" وهنا نعني به " الجمع بين قراءة الوحي الإلهيّ في كتاب الله والبيان النبويّ المسدّد بالوحي في سنَّة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلَّم- أولاً فإذا تم للمجتهد ذلك فليتجه إلى "الجمع" بينهما وبين الكون، والكون يتناول ما تواضعنا على تسميته "بالواقع" و"الواقع" يتألف من عناصر كونيَّة وإنسانيَّة عديدة فهو يشمل "منظومات القيم والأشياء والأشخاص والأحداث والأفكار والنظم والزمان

والمكان". وهنا قد نخرج "الفقيه" من الاستغراق في الواقع الذهنيّ إلى الجمع بين الواقع الذهنيّ والواقع الخارجيّ.إضافة إلى " الواقع القرآنيّ" فالقرآن المجيد لم يستخدم المجرَّدات الذهنيَّة حتى في تلك الأمور التي لم تعتد البشريَّة النظر إليها إلاّ مجرّدة، بل استخدمها القرآن في إطار حركة لا يستطيع أن يصنع مدارها شيء في الوجود غير القرآن: "لعلكم تعقلون، تتفكرون، تتذكرون، أفلا يتدبّرون القرآن" ففي كل هذه الأمور ذات الصبغة التجريديَّة وكثير غيرها يضعها القرآن المجيد في إطار الحركة والتصرّف. بهذا يمكن أن يتسم الفقه بالحيويَّة والحركة والإنتاج، والمرونة والقدرة على ضبط شئون الحياة وشجونها. وهنا تحضرني ملاحظة قيِّمة أشار إليها ابن رشد في كتاب الغسل /باب أحكام الحيض والاستحاضة ص (54) من بداية المجتهد بعد أن أورد اختلاف الفقهاء في أقل الحيض وأكثر وأقل الطهر. عقّب -رحمه الله- قائلاً: "... وهذه الأقاويل المختلف فيها عند الفقهاء في اقل الحيض وأكثره وأقل الطهر لا مستند لها إلاّ التجربة والعادة؛ وكلٌّ إنّما قال من ذلك ما ظن أنَّ التجربة أو قفته

عليه..." فهو -هنا- قد نبَّه لضرورة ملاحظة الفقيه للتجربة بمعناها العلميّ الدقيق القابل للتعميم، وليست التجربة الفرديّة. ولديه كثير من الإشارات المماثلة التي تستحق الجمع والدراسة. وفي لغة عصرنا نستطيع أن نقول: إن هؤلاء الأئمة قد بنوا أقوالهم في ذلك على استقراء ناقص ربما لم يتجاوز المجتهد فيه نساء بيته. وللوصول إلى رؤية أدق كنّا في حاجة إلى استبيانات تؤخذ فيها شرائح متعدّدة. ليبرز دور الاستقراء والعادة، وأهميَّة خبرات المكلّفين وتجاربهم القابلة للتعميم في "القضيَّة الفقهيَّة"؛ فلا يكون الفقه في جانب وأحوال المكلّفين في جانب آخر.

يضاف إلى ذلك مواقف الأطباء المختصين وذوي الخبرة والتجربة في هذه الأمور لئلا يأتي قول الفقيه منبتاً عن الواقع منفصلاً عنه.

الربط بين الفقه وقضايا المجتمع:

❖ جانب آخر أود أن أنبّه إليه هو: " أن الفقه وأصوله وقواعده ومقاصده يفترض فيها - بالإضافة إلى كل ما تقدم- أن

تساعد جميع أبناء المجتمع – الذي تنظّم شئونه بمقتضى ذلك الفقه- على العيش المشترك المنظّم، المتساوي في الحقوق والواجبات الذي يسعد الجميع به مع الأمن والرخاء، ووجود قواعد ضامنة لحفظ ذلك، ومجازاة من يخرج عنه، سواء بتجاوز حقوقه إلى حقوق الآخرين، أو التفريط بواجباته". ولم يعرف فقهنا هذه السمات الضروريّة بشكل دقيق إلاّ في مرحلة "جيل التلقي" الذي قسمناه إلى مرحلتين، هما: "مرحلة التأسيس والتكوين" وهي مرحلة النبوة ثم في "مرحلة الامتداد" التي هي مرحلة " الخلافة التي كانت على منهاجها" وتلك ميزة من أهم مزايا ذلك الجيل المبارك كنّا نتمنّى أن يتخذها "جيل الفقه" والأجيال التي تلته "إطاراً مرجعيّاً". وفي ذلك الجيل، وإذا أردنا الدقة قلنا: إنّ مرحلة الامتداد تلك كانت مرحلة الشيخين أبي بكر وعمر والسنوات الستة الأولى من خلافة عثمان – رضي الله عنهم أجمعين- إذ أنّ تلك المرحلة هي التي كانت مرحلة "جمع بين القراءتين" وفي الوقت – نفسه - كانت مرحلة لم تنفصل ولم تتمايز فيها " القضايا الفقهيّة" عن " القواعد الاجتماعيَّة" فالتمييز

بين مجمل نظم وقواعد الحياة وبين " الفقه" إنّما حدث في جيل الفقه لأسباب كثيرة تحتاج إلى دراسات متعمِّقة، منها ذلك الفصام الذي وقع بعد تلك المرحلة بين القيادتين السياسيّة القبائليَّة والقيادة الفقهيَّة التي كانت تمثل القيادة الفكريّة والمعرفيَّة للأمَّة، واستمرار ذلك الخلاف وتعمُّقه ليصبح بعد ذلك فصاماً أو طلاقاً بائنا بين " أهل السيف وأهل القلم".

نظريّة البدعة وأهميّتها:

❖ أمّا ما أود أن أختم به فهو أمر يتعلّق بما لاحظته من بعض الشباب بينكم من تساهل في إطلاق لفظ "البدعة" بحيث صار البعض يطلقها على بعض الأمور الخلافيَّة، أو على أمور هي من خصال الفطرة. وهذا تساهل أخشاه كثيراً، فإنّي أخشى من التنابز به أن يؤدي إلى مثل ما أدّى إليه التساهل في تداول لفظ "الكفر" دون تفريق بين كفر مخرج من الملّة والعياذ بالله، و"الكفر" بالمعنى اللُّغويّ -الذي هو الستر- أي ستر بعض الأمور، أو تجاوزها أو تجاهلها، وتلك الأمور قد تكون من

خصال الفطرة، أو من المستحبَّات أو المندوب إليها. فقد قرأت لأحدهم كتيِّباً كفّر فيه من يحلق لحيته، وفسَّق وبدّع من يقصّرها، وقال مثل ذلك فيمن يطيل ثيابه، أو يجرها خيلاء. وفيمن يتصوَّر أو يصوِّر سواه فوتوغرافيّاً، أو يعلِّق صور أبنائه أو أفراد أسرته في منزله. وواجب على طلبة العلم أن يكونوا على وعي تام بالمفاهيم، وحَذَرٍ شديد عند تداولها فإنَّ وصف ما ليس بكفر بالكفر، أو ما ليس بحرام بالحرمة أو ما ليس بواجب بالوجوب إنَّما هو حكم بغير ما أنزل الله: يوقع من يمارسه تحت طائلة قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ**﴾ [النحل:116].

فإنَّ الحاكميَّة منحصرة في كتاب الله انشاءاً و كشفاً، وفي سنَّة رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلَّم- بياناً ملزماً بالقول والفعل. كما أسلفنا وأكدنا

ومن لا يعرف الفرق الدقيق بين المفاهيم الشرعيَّة كالفرق بين الكفر الأكبر المخرج عن الملّة، والكفر الأصغر، والكفر

اللّغوي الذي لا يجاوز معنى الستر والخفاء أو الاخفاء. و"البدعة" المخرجة عن الملّة، و"البدعة" التي ينسب الإنسان بمفارقتها إلى تجاوز السنَّة أو مخالفة " أهل السنَّة" فليس له الخوض في هذه الأمور، لأنَّه بذلك قد يسقط في أكبر مما أراد أن يحذّر الناس منه. وقد يبوء بالكفر الذي يرمي به سواه.

إنّ " نظريّة البدعة" إذا تجوزنا في تسميتها "نظريَّة" من أهم النظريَّات الوقائيَّة التي على المجتهد أن يهتم بها لصيانة "فقه التديُّن" من الانحراف في اتجاه الزيادة أو النقص. والأديان منذ القدم مظنّة الغلوّ و التعرّض إلى انحراف التديُّن الذي كثيراً ما يسئ إليها. فالناس قد يدخل الشيطان إليهم -أحياناً- من مدخل إقناعهم بقلّة التكاليف أو العبادات التي جاء الدين بها فلو أنّهم زادوا فيها لكان أرجى لهم في تحقيق القرب من الله – تعالى- وتحقيق التميُّز على الآخرين. فيزيدون في ذلك بشكل يعجز عنه غيرهم، أو يعجزون هم عنه في حالات المرض وتقدّم السن والانشغال، وما إلى ذلك من شئون وشجون الحياة. وهنا يأتي الشيطان من الجانب الثاني ألاّ وهو جانب التقليل فلا يكتفي

بدفعهم إلى التوقُّف عن أداء ما زادو أو ابتدعو. وتزيين ذلك لهم؛ بل قد يتجاوز ذلك إلى التخفّف من أداء شيء مما افترض الله عليه بالكليَّة أو بالشكل الذي يجعله عديم التأثير في نفس صاحبه. وبذلك يثقل "التديُّن" على البعض لكثرة البدع المضافة إليه، ويجترئ المغالي- بعد ذلك- على سننه وواجباته وفرائضه؛ لأنَّ من يحس بالثقل ويبدأ مسيرة التخفُّف قد يتخفف من بعض ما هو ضروريٌّ له أو حاجيٌّ في أقل تقدير.

ألقي الصحيفة كي يخـــفف رحلـــه

والـــزاد حتى نعلــــه ألقاهـــــا

وفي الأحاديث الشريفة التي وردت في هذه المجالات دروس وعبر ومنها:

حدثنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا محمد بن جعفر أخبرنا حميد بن أبي حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك -رضي الله عنه- يقول: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- يسألون عن عبادة النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما

أخبروا كأنّهم تقالُّوها فقالوا وأين نحن من النبي - صلى الله عليه وسلم- قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أمَّا أنا فإنِّي أصلي اللَّيل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ".فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فقال أنتم الذين قلتم: كذا وكذا؟ أما والله إنِّي لأخشاكم لله وأتقاكم له؛ لكنِّي أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنَّتي فليس مني"[7].

حدثنا مقدام نا خالد نا عيسى بن المطلب عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّه قال "لأصومنَّ ما عشت، ولأقومن اللَّيل ما عشت، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أنت الذي قلت: لأصومنّ الدهر ما عشت، ولأقومنّ اللّيل ما عشت؟ فقال له عبد الله بن عمرو: قد قلت ذاك

---

[7] أخرجه البخاري في صحيحه (5/ 1949/ح 4776) و ابن حبان في صحيحه (2/21/ح31) و البيهقي في سننه الكبرى (7/77/ح13226).

يا رسول الله. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صم وأفطر، وصل ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام فكل حسنة بعشر أمثالها. قال: إنِّي أجدني أقوى على أكثر من ذلك؟ قال: تصوم يوما وتفطر يومين. فقال: إنِّي أجدني أقوى على أفضل من ذلك؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: تصوم يوما وتفطر يوما. قال يا رسول الله إنِّي أجدني أقوى من ذلك؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- لا أفضل من ذلك[8]!!!

إنّ ممَّا لا شك فيه أنّ اتِّباع رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلَّم- في نمط حياته وأساليب عيشه من الأمور المستحبَّة، وإذا لم يكن فيها إلاّ تذكرُّ رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلَّم- باستمرار، والتأسِّي به، والتقرّب إلى الله باتِّباعه، فذلك كافٍ في الترغيب بهذا الاتجاه، لكنّ على طالب العلم – قبل ذلك- أن يعرف الفروق الدقيقة الكثيرة بين التأسّي به – صلى

[8] أخرجه البخاري في صحيحه (1/381/ح1079)، (3/1257/ح3238). والنسائي في سننه (3/215/ح1630)، و ابن حبان في صحيحه (6/326/ح2590) و الطبراني في معجمه الأوسط (8/ 347/ح8832).

الله عليه وآله وسلَّم- بصفته نبيّاً ورسولاً، والفرق بين ما يقوم به - عليه الصلاة والسلام- بهذه الصفة، وبين ما يقوم به- عليه الصلاة والسلام- بدافع الجبلَّة والطبيعة، والجانب الإنسانيّ المحض. ففي هذا الجانب الأخير أنت حر في إلزام نفسك بالاتّباع فيه. ولكن ليس لك أن تطالب الناس - جميعاً- بذلك وقد أعفاهم الله منه.

❖ كذلك ينبغي لطالب العلم أن يحرص على معرفة الفروق الدقيقة بين الشمائل والسنن، فالشمائل يغلب عليها جانب الخصوصيّة والاختصاص "بالإنسان الكامل النبيّ الرسول" في حين أن السنن لجميع المؤمنين بحسب مراتبها.

❖ كذلك ينبغي الالتفات إلى الفروق بين السنن التشريعيَّة، والسنن غير التشريعيَّة. والفرق بين القول النبويّ والفعل النبويّ، والتقرير وصفته وهيئته. وكل هذه الأمور تتوقف على دراسات جادة وإطلاع واسع، و"جمع بين القرائتين" فلا يتأتى لطالب العلم أن يدعي اتباع السنّة والالتزام بها، ويهذّ الأحاديث هذّاً ويسردها سرداً بالعشرات وبالمئآت لمجرّد أنّه

قدرآها أو قرأها في كتاب من الكتب المعتبرة المطبوعة والمتداولة، فإنّ علماء الأمَّة قد نقل عنهم الكثير من الاستدراكات والملاحظات، والاعتراضات على كثير مما ورد في الكتب المعتبرة والطالب في حاجة إلى معرفة ذلك وفهم أسبابه بدقة. ويحتاج طالب العلم أن لا يكون مجرّد مقلّد في قضايا الجرح والتعديل وقواعد نقد المتون، "فعلوم الحديث" من العلوم التي جرى فيها الاشتراك بين المهتمين بعلـــوم الحديث والرواية وبين علمـــــاء "أصول الفقه" و" الفقه" و"التاريخ والسير". ونحن في عصر أتاح الله – تبارك وتعالى- فيه كثيراً من الإمكانات - التي لا بد لنا من الاستفادة بها؛ لإخضاع كثير من أنواع المعارف الإسلاميَّة- التي كانت تخضع لمناهج ذاتيَّة إلى مناهج علميَّة ومعرفيَّة قد تكون أكثر انضباطاً. وقد تساعد على مراجعة بعض ما كان يعد في الماضي من قبيل المسلّمات، والوصول فيه إلى القول السديد والموقف الرشيد. ولا ينبغي النظر إلى مثل هذه المراجعات أنَّها تمثّل اجتراءاً على مقامات علمائنا المتقدّمين من المتأخرين، لا؛ لأنّها -في الحقيقة- إضافة واستكمال لما بدأوه، وتنقية وتنقيح لما

أصَّلوه، واستدراك مقبول على ما قالوه. فقد ظهرت مخطوطات كثيرة، وحقِّقت ونشرت كتب كثيرة، وتأسَّست مناهج ومعارف لم تكن قد ظهرت من قبل. وكلُّها من الوسائل الهامَّة التي تؤهل المؤهَّلين من أبناء هذه العصور للقيام بذلك؛ لتصحيح مسار الأمَّة، وتقليل نقاط الاحتكاك والاختلاف بين أبنائها.

إنَّنا في حاجة ماسَّة إلى الكثير من المراجعات في تراثنا عدا ما ذكرناه أو أشرنا إليه. ولعل الله - تعالى- يمن بفرصة أخرى تسمح بالدخول في بعض التفاصيل في هذا المجال وفقكم الله - تعالى - والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * * *

الأسئلة والأجوبة:

س1- لقد أشرتم إلى "التعامل مع القرآن" وكتبتم كثيراً في هذا الموضوع. وكنتم تتجهون - دائماً- إلى تقرير "ضوابط للتعامل مع القرآن" وكأنَّكم تعانون من ضغط داخليٍّ أو خارجيّ عليكم يجعلكم تسارعون باستمرار إلى تقرير الضوابط، فهل كان ذلك

لئلا يقال: إنكم دعوتم الناس كافّة على اختلاف مواقعهم إلى تدبُّر القرآن، وذلك قد يدفع البعض إلى القول بالقرآن قولاً لم يرد لدى قدامى المفسِّربن أو العلماء، فهل تخشون الرقابة على العقول؟ وهل تقرّون هذه الرقابة؟ والقرآن مأدبة الله. وقد دعا القرآن - نفسه- الناس إلى تدبُّره من غير أن يضع عليهم ضوابط وقيوداً. وبناءاً على ذلك فقد حض رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلَّم- على قرائته وتدبُّره من غير أن يقيّد ذلك بالضوابط التي تكثرون من ذكرها، فهل من توضيح لهذه النقطة.

* * * *

س2- من الإشكالات التي يكثر ترديدها في مثل هذه المناسبات و لم نعط فيها حلاً مقنعاً "إشكاليَّة العقل والنقل". وقد سمعنا كثيراً عن هذه الإشكالية في هذا اليوم. وعن الاختلاف بين الغزالي وابن رشد، وموقف كل منهما من "الدين والفلسفة" وكذلك الخلاف بين الاشاعرة وبين المعتزلة؛ فهل النزاع بين الدين والفلسفة نزاع حقيقيٌّ لا مناص منه، أو هو نزاع مفتعل؟!

*   *   *   *

س3- لديكم كتاب في "أدب الاختلاف" ذكرتم فيه نماذج كثيرة لهذا النوع من الأدب. فإذا كنتُ مؤمناً أنّني على حق، وأنّ الآخر على باطل، فهل من أدب الاختلاف أن أتساهل في الحـــق الذي أيقنت به لصالح ما أنا على يقين أنّه باطل أو خطأ؟

*   *   *   *

س4- وصف عصر ابن رشد بأنّه كان عـــصراً متلألئـــاً، وهناك من أشار إلى تأثير عصره في فكره وفقهـــه وفلـــسفته، فكيف يستقيم هذا، والتاريخ يبرز لنا أن الواقع الإســـلاميّ في المشرق والأندلس والمغرب كان واقع أزمة؟ فكيف ينتج الواقع المأزوم علماء كباراً على هذا المستوى؟

*   *   *   *

س5- تحدثتم عن "النماذج المعرفيَّة" وأهميَّتها في تحليل "القضايا الفقهيّة" وفتاوى المفتين. فهل للدول بوصفها دولاً نماذج معرفيَّة تؤثّر في مواقفها السياسيَّة، وعلاقاتها بالدول الأخرى؟

*   *   *   *

س6- أشرتم في بعض دراساتكم إلى "المنهج ومسلَّمات ما قبل المنهج، ومسلّمات ما بعد المنهج، هل لكم أن توضِّحوا لنا مرادكم بذلك؟

*   *   *   *

س7- دعوتم إلى "تجديد الفقه"، وعالجتم بعض القضايا التراثيَّة والمعاصرة بشكل يشعر أنّها تمثل نماذج للفقه المجدَّد كما ترونه، فكيف يتم تجديد الفقه من وجهة نظركم وهل تعتبرون ما كتبتموه في "قضايا الردَّة والتجنُّس بجنسيّات البلدان ذات الاكثريات غير المسلمة، والتصوير، والمشاركة السياسيَّة، وشهادة المرأة من نماذج التجديد الفقهي كما ترونه أو هي فقه جديد؟ أو أنكم تقترحون منهجاً آخر لذلك؟ نرجو توضيحه.

وهل يمكن تجديد الفقه في غياب الممارسة العمليَّة له، وعدم تطبيقه في الواقع؟ وما مدى صحة دعوى من يقول بإمكان الاستغناء عن الفقه القديم الموروث - كلّه- والاستعاضة عنه بفقه جديد؟

*   *   *   *

س8- نسب إليكم، بل لقد صرحتم في بعض ما كتبتم بإنكار وجود النسخ في القرآن المجيد، وهناك آيات يصعب نفي وقوع النسخ فيها، فكيف يمكن أن تستقيم هذه الدعوى؟

س9- أكدتم على تأثير البيئات والثقافات في الفقه، ومثّلتم ذلك بمذهبي الشافعي القديم والجديد، فهل كان ذلك لتغيُّر الثقافة والبيئة أو أنّ الإمام قد أكتشف أدلة أخرى لم يطلع عليها في بغداد، فقال بمقتضاها؟

*   *   *   *

س10- ناديتم بتأسيس "فقه للأقليّات" وقد اضطربت مواقف العلماء المعاصرين من تلك الدعوى. ثم كتبتم فيها وما يزال الجدل دائراً حولها، وما إذا كانت تمثّل إعادة تقديم "لفقه النوازل" بعنوان معاصر، أو أنّكم أسّستم بذلك لعلم فقهي جديد وكيف يتّصل "فقه الأقليّات" كما تطرحونه "بالفقه العام" وأين ينفصل؟ وما رأيكم فيه بعد أن جرى تداوله وكتب فيه غيركم،

بل صار يدرس في بعض الجامعات باعتباره علماً من "العلوم الفقهيَّة" يمكن أن تنسب لكم فيه "براءة الاختراع" كما يقولون؟

* * * *

س11- خلال تجربتكم في تدريس "العلوم الإسلاميَّة" من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه في المشرق وفي الغرب، هل لكم أن تلخّصوا لنا أهم الفروق بين أركان العمليَّة التعلميَّة في هذه العلوم بين الشرق والغرب، وهل تتفقون مع النداءآت المتعالية بضرورة تغيير البرامج التعلِميَّة لهذا النوع من أنواع المعرفة الإنسانيَّة، وما هو الموقف المناسب من هذه النداءآت في نظركم أهو الاستجابة والخضوع لها، أم هو التشبُّث بما لدينا، ورفض سائر تلك النداءآت أم ماذا؟

* * * *

س12- ناديتم بما أسميتموه "بالمقاصد القرآنيَّة العليا الحاكمة" وحصرتموها في ثلاثة: "التوحيد، التزكية، العمران" ما الذي تريدونه بهذه المقاصد، وما الفرق بينها وبين مقاصد

الشريعة كما أسس لها الجويني والغزالي وابـن عبـد الـسلام والشاطبي وابن تيميَّة وسواهم؟

*   *   *   *

نقطـة نظـــام:

قبل أن أبدأ الإجابة على أسئلتكم وتساؤلاتكم لا بـد لي من التذكير بما أسمِّيه "فنَّ السؤال".إنّ النحاة العرب حينما تناولوا "مباحث الاستفهام" ذكروا فيما ذكروه للاستفهام أقساماً، منها الاستفهام بقصد المعرفة والتعلُّم وله أسلوبه الخاص في التعبير وفي نبرات الصوت ذاته. وهناك "الاستفهام الإنكاريّ" الذي يوجه على سبيل التقريع والاستنكار: ﴿ **قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ** ﴾ [الحجرات:16] وهناك "استفهام المتعجِّب" وهناك "الاستفهام التقريريّ" وهناك "استفهام الاختبار" الذي يوجهه الأساتذة المختبرون لمن يجرى اختبارهم وهناك "استفهام المعترض" يوجهه

لمستدل، أو صاحب دعوى لإحراجه... أو لتفنيد دعواه وهناك أنواع أخرى من الاستفهامات.

وقد تناولت استفهامات القرآن المجيد أنواعاً كثيرة من هذه الاستفهامات ولا نستغرب وجود دراسات في " أساليب القرآن في الاستفهام". وللاستفهام دور معرفيّ على جانب كبير من الأهميَّة يحتاج طلبة العلم إلى فهمه وتعلُّمه. ولنا فيه بعد القرآن الكريم، والأساليب النبويَّة المتناثرة في السنة والسيرة تراث غنيٌّ قام عليهما، نجد الكثير منه في كتب العربيَّة نحواً وبلاغة، وفي مباحث القياس لدى الأصوليّين خاصّة في تناولاتهم لضوابط الاستدلال والاعتراض، وكيفيَّة صياغة المستدل لدعواه، وصياغة المعترض "لسؤال المعارضة". إضافة إلى العلم أو الفن الذي عرف "بعلم آداب البحث والمناظرة"، وما أعطاه للسؤال من اهتمام خاص. فأرجو أن يكون من بين المهارات التي يتقنها طلبة "السلك الثالث في الجامعات المغربيَّة" مهارة صياغة "السؤال المعرفيّ" بكل أنواعه. إن المتقدِّمين من علمائنا قد قالوا: "إن السؤال نصف الإجابة" يعني صياغة السؤال بالدقة المطلوبة يؤدي إلى خفض الجهد المعرفيّ

المطلوب في الجواب الصحيح إلى النصف. والسّؤال الصحيح يقود إلى الجواب الصحيح، والسؤال الخطأ يقود إلى الجواب الخطأ.فعباس بن فرناس الذي حاول الطيران في العصر العباسي وصنع لنفسه أجنحة قد سقط ومات في تلك المحاولة، لأنَّه صاغ سؤالاً خاطئاً، وأجاب عنه بجواب خاطئ حين حاول تطبيقه هلك دونه.!! فقد تساءل ابن فرناس: "لِمَ يطير الطير" و لم يطرح في سؤاله: "لِمَ و كيف ولماذا وأيّ شيء "فكان سؤاله ناقصاً مبتوراً خاطئاً؛ لأنّه أثير بتلك الطريقة غير المستوفاة. فكان جوابه الخاطئ: "بأجنحته يطير الطير" فعمل لنفسه أجنحة ضخمة لم تمكّنه من الطيران على ضخامتها، والجهد الذي بذله فيها فسقط بعد الحركة الأولى!! وصاغ نيوتن سؤاله بدقة: حين تساءل عن أسباب سقوط التفاحة، وعدم سقوط الشمس فأداه سؤاله إلى البحث للوصول إلى قانون الجاذبيَّة!!

وأود أن أؤكد لأبنائي وبناتي أن من أهم جوانب أزمتنا الفكريَّة وصراعاتنا واختلافاتنا، بل وفشلنا في معالجة كثير من قضايانا العجز عن الوصول إلى الجواب المناسب للعجز عن

صياغة السؤال المناسب. ولذلك فإنّي بعد مـــا اســـتمعت إلى أسئلتكم خطرت لي هذه الخاطرة فأردت التنبيه إليها. لنعمـــل على أن نبذل الجهد المناسب في صياغة أسئلتنا صياغة معرفيّـــة دقيقة تساعد على تقديم الجواب المناسب عليهـــا. إنّ صـــياغة السؤال صياغة معرفيَّة لا يمكن أن يمهر الطـــلاب بهـــا بـــشكل عفويّ؛ فهيَ أمر كسبيٌّ. فمن ضروري تعلم كيفيـــة صـــياغة "السؤال المعرفيّ وكيفيَّة عرضه" وأتمنى أن ينهض واحد مـــنكم لكتابة دراسة جامعيَّة كاملة في هذا الموضوع الهام وسوف أكون سعيداً بالإشراف عليه أو توجيهه ومساعدته.

تفاصيـــل الأجوبـــة:

ج1- ضوابـــط التعامـــل مع القـــرآن:

لا أنفي ولا أنكر مدى حرصي على الـــوعي "بـــضوابط التعامل مع القرآن" وحسن إدراكها، وضرورة مراعاتها، والالتزام بها. ولن أملَّ ترديد ذلك والدعوة إليه.

ولا يحمل هذا التوجُّه -عندي- أيَّ تجاهل أو تجاوز "لنعمة التيسير الإلهيّ لهذا الكتاب الكريم". ولا أخشى - أبداً- أن أقرأ أو أسمع أيَّ رأي أو قول أو تأويل أو تفسير يقوله متأخر لا يبني ما يقوله على أقوال القدامى والمتقدمين من أهل التفسير والتأويل. فإنّ هذا القرآن كريم تتكشف معانيه عبر العصور ليأخذ أهل كل عصر من معاني القرآن والوعي به ما هم محتاجون إليه. ولا أجهل الكيفيَّة التي كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلَّم- يتلو بها الكتاب، ويعلّم أصحابه كيف يتلونه ويقرؤنه بها.

وأعلم - أيضاً- أنّ القرآن المجيد قد دعا الناس - كافّة- إلى تدبُّره وتعقُّله وتذكُّره والتفكير فيه وتلاوته حق التلاوة، وترتيله ترتيلاً، ولم يضع شروطاً أو ضوابط لذلك. ونشكر الله - تعالى- أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلَّم- قد سمّى القرآن "مأدبة الله". وما جعله الله - جل شأنه- مأدبة لعباده لا يملك أحد أن يمنعه عن عباد الله أو يضع شروطاً وضوابط تحول بينهم

وبين "مأدبة الله" أو تحدٌّ من قدرتهم على أن يصيبوا منـــها مـــا يستطيعون. فتلك - كلّها- مسلّمات لا نختلف في شيء منها.

أما القول بأنّني قد أعاني من ضغط نفـــسيّ داخلـــيّ، أو ضغط خارجيٍّ، يحملني على المسارعة إلى تقرير تلك الـــضوابط والقيود فإنّني لا أستطيع نفي هذه المشاعر نفياً مطلقاً، خاصَّـــة الداخليّ منها وسآتي إلى تفصيـــل ذلك في موضعه إن شـــاء الله - تعالى-. فإن كان السائل يرى أن هذا هو ما كـــان يريـــد أن يسأل عنه **فالجـــواب:**

إنّ القرآن الكريم المجيد كتاب الله - تبارك وتعالى- وكلامه وصفة من صفات ذاته العليَّة، وهو أعظم كتاب أنزله الله تعـــالى، معادل للكون وحركته، مستوعب لهما، متجاوز، صدّق الله بـــه على تراث النبيّين كافَّة، وجعله مهيمناً على ذلك -كلّـــه- وقـــد استوعب تاريخ البشريَّة، وتتبَّـــع أطوارهـــا، ورصـــد جوانـــب الاستقامة والانحراف في مسيرتها. فهو الحق المطلق والصدق المطلق يحمل هداية للتي هي أقوم في كل شيء، وشرعة مثلى ومنهاجاً لا ينحرف. هو نبيّ دائم مقيم بعد ختم النبوَّة إلى يوم الدين.وصـــفه

الله -تعالى- في محكم آياته بأوصاف وأسماء جاوز ما أحصيناه منه أربعة وثلاثين اسماً و لم نستقرئ - بعد- أوصافه وصفاً وصفاً ليتضح أنّه لا يشاركه في أسمائه و أوصافه كتاب. ولا نشك أنّه قد فاتنا منها الكثير[9] فهو كلمة الله ووحيه وروح منه.

وقد وردت أحاديث نبويّة كثيرة جداً في بيان بعض جوانب عظمة هذا القرآن وأهميّته نقتصر على ذكر حديث واحد منها.

وذلك مما رواه السيد الإمام أبو طالب - عليه السلام- في أماليه، والحافظ المحدِّث أبو عيسى الترمذي[10] في جامعه من حديث الحارث بن عبد الله الهمذاني صاحب عليّ - عليه السلام- قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث. فدخلت على عليّ - عليه السلام- فأخبرته فقال: أوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أماَ إنِّي سمعت رسول الله -صلى

---

[9] وانظر كتابنا قيد الطبع "الخطاب العالمي في القرآن"

[10] أخرجه الترمذي في جامعه: (172/5) وفي الطبعات التي رقمت فيها الأحاديث رقمه (29.8) في باب "فضل القرآن" وقد استدل به صاحب "إيثار الحق....." في كتابه "ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان" ص (15).

الله عليه وآله وسلَّم- يقول:" ألا إنَّها ستكون فتنة". قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: " كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدي في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد، فآمنا به. من قال به صدق، ومن عمل به أجِرَ، ومن حكم به عدل، ومن رواه السيد الإمام أبو طالب - عليه السلام- في أماليه بسند آخر من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه. عن رسول الله(11) - صلى الله عليه وآله وسلَّم- بنحوه. ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الأصول من طريق ثالثة، من حديث عمر ابن الخطاب- رضي الله عنه(12).قال: ولم يزل

---

(11) ما رواه معاذ عن علي جاء في (مجمع الزوائد:164/7).

(12) والمروي بطريق عمر تجده في "جامع الأصول: الحديث رقم (6232)" لكنه ورد فيه عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما- وقال المحقق السيد عبد القادر الأرناءوط

معلقاً "كذا في الأصل – أي: عن عبد الله بن عمر، وفي المطبوع: عمر بن الخطاب" و لم يرجح. وفيه اختلاف يسير عن رواية الإمام أبي طالب والترمذي، حيث جاء في هذه الرواية قول ابن عمر:" ... نزل جبريل – عليه السلام- على عهد رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم- فأخبره: أنها ستكون فتن، قال (أي: رسول الله لجبريل): "فما المخرج منها يا جبريل؟" قال: كتاب الله... إلخ، وقد أخرجه رزين وذكره ابن كثير في فضائل القرآن بمعناه عقب حديث الحارث من حديث عبد الله بن مسعود، وقال (أي: ابن كثير): رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه "فضائل القرآن" وقال: هذا غريب من هذا الوجه.

وفي سنن الدارمي أورد الحديث في (523/2) برقم (3315) عن عبد الله وبدأه بقوله: "إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم..."، وختمه بقوله:"فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته...". وأما باللفظ الذي معنا فقد أورده الدارمي في الحديثين رقمي(3331) و(3332). وقد علق المحققان عليه بقولهما:" رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب(14) ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم (2906) 172/5-173. وأحمد في المسند (91/1). وأبو داود الطاليسي وأبو بكر الأنباري في كتاب "الرد" له عن الحارث عن علي. كما في التذكرة للقرطبي ص (48). قال ابن كثير في فضائل القرآن (ص 11-12): " لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، فقد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة من عهدته، على أنه وإن كان ضعيف الحديث، فإنه إمام في القراءة. والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده (أي: لا من جهة روايته وصدقه)، أمّا أنّه تعمَّد الكذب في الحديث فلا والله أعلم. وهذا الحديث إن لم تتسع لتصحيحه شروط المحدثين، فلا أقل من أن يكون أثراً صحيح المعنى من كلام أمير المؤمنين علي – رضي الله عنه- وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن

صحيح، على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-" أ.هـــ.والآية رقم 2 من سورة الجن.

قلت: وفي بعض الشروح حددت الفتن التي يخرج القرآن منها بـــ "فتنة الحديث أو الأحاديث" أي: بأنها الافتتان برواية" الأحاديث" أو السنن" وإشغال الناس بها عن تلاوة القرآن المجيد ودوام الرجوع إليه، وبعضهم حملها على الأحاديث والأخبار مطلقاً، ففي كل ذلك انشغال عن القرآن وقد يستفيد القائلون بذلك بأحاديث النهي عن كتابة السنن والتأكيد على عدم الانشغال بغير القرآن. (قال طه)-: ولكن الفرق كبير بين انشغال بأحاديث نبوية مرفوعة صحيحة تأتي على سبيل البيان بأنواعه للقرآن المجيد، وبين مطلق الحديث. وفرق كبير بين انشغال لطلب بيان، والانشغال بها على سبيل الاستعاضة عن القرآن، والاكتفاء بها بحجة اشتمالها أو تضمنها للقرآن أو بأيّ - حجة أخرى.

لقد استقرت المذاهب الفقهية في العهد الرابع من عهود الفقه وركدت حالة الاجتهاد المطلق، وعكف المقلدون على مذاهب الأئمة، والكتابة في مناقبهم، والعمل على ضم الناس إليهم كل إلى مذهبه وإمامه. وجعل بعضهم أقوال أولئك الأئمة مثل نصوص الشارع يدخلها التعارض والترجيح والنسخ وما إليها، أمّا في عصر الصحابة وبخاصة- عصر الشيخين- فلم يشغلهم شيء عن كتاب الله، ولما انتهت سنة أربعين للهجرة برزت اتجاهات فقهية وبدأ الناس ينشغلون بها.

وحين كان عبد العزيز والد عمر والياً سنة (83هـــ) فكر في جمع السنن، وهو مشروع استكمله ولده عمر بن عبد العزيز، لتكون السنن فقهاً بديلاً عن الفقه الخلافي يرجع الناس إليها لئلا تتفرق بهم السبل الفقهيَّة، ولكن الكثيرين انشغلوا بالسنن عن القرآن المجيد بحجة اشتمالها عليه وارتباطها به، وجعلوا من السنن شواهد لأقوال أئمة الفقه، ثم انشغلوا بفقه الأئمة عن السنن، وصاروا يتداولون أقوال الأئمة ويفرعون عليها حتى بدا وكأن الشريعة هي أقوال هؤلاء الأئمة، بحيث سوغ الكرحيُّ الحنفي لنفسه أن يقول في أصوله:

العلماء يتداولونه، فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقـــى بالقبول عند علماء الأصول، فصار صحيح المعـــنى في مقتـــضى الإجماع والمنقول والمعقول. وقد أودع الله -تبارك وتعالى- كتابه الشرعة والمنهاج فأنقذنا به من الضلالة، وفتح للعالمين به أبواب رحمته وسبل هدايته. فحمداً له سبحانه على هدايته، والشكر له على نعمائه وعنايته، أغنانا به- جل شأنه- عمّا سواه. وكفانـــا به عمّا عداه: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَـــابَ يُتْلَـــى**

"أصل: كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي إما مؤولة أو منسوخة". ومهما يقال في تأويل ذلك أو التخفيف منه فإنّه قول جريء يدل على أن التعصُّب للمذاهب قد بلغ مستوى مَرَضيّا بحيث صار الأصل تابعاً للفرع، بل محكوماً به. ولذلك فإن إعادة بناء الأمَّة واستئناف شهودها الحضاريّ وشهادتها على الناس لا يمكن أن تعود إليها ما لمتتجاوز هذه الإصابات الخطيرة، وترد الناس إلى القرآن المجيد مصدراً منشئاً وكاشفاً عن الأحكام وغيرها مما تناوله أو تعلق به فقد أنزله الرحمن الرحيم " حُكماً وحَكَمَا وشفاءاً للمؤمنين" أما ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ** ﴾ [النحل:88] وما اختلف فيه او عليه لا بد فيه من الرجوع إلى السنة النبويَّة التي صدرت عن رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم- ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [النحل:64] وعلى هذا فالمعنى الوارد في هذا الحديث أو الأثر معنى صحيح يشهد له صريح الكتاب وصحيح السنَّة. والله أعلم.

عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:51]

فنسأله -تعالى- كما أنعم علينا بالقرآن العظيم، والرسول الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم- أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، ويذكرنا منه ما نسينا، ويجعله حجة لنا، لا علينا، وقائداً لنا إلى الجنّة. إنّه سميع مجيب.

ولقد تحولت "خصائص القرآن وفضائله ومزاياه" إلى أكثر من علم واحد من علوم الأمّة الهامّة والمعتبرة.

لماذا نحرص على تقرير ضوابط للتعامل مع القرآن؟

نحن في عصر سادت فيه "اللبراليَّة" و"العلمانيَّة"، وفي إطار "العولمة" هيمنت الاتجاهات "اللبراليَّة والعلمانيَّة" على سائر الأنساق الحضاريَّة والثقافيَّة وفرضت رؤيتها على العالم -كلّه- بمستويات مختلفة. ولم تستطع أمتنا المسلمة أن تكون بمنجاة في نسقها الحضاري والثقافي من ذلك الاختراق.

ولعل أهم ما يهمّنا إبرازه في هذه المناسبة "نظرة اللّبراليَّة والعلمانيَّة" إلى "الكتب المنزلة الموحاة" وهي التوراة والإنجيل والقرآن. والرؤية العلمانيَّة تؤكد بشريَّة هذه الكتب من ناحية، وكونها كتباً دينيَّة من ناحية أخرى. ففي وصفها بالصفة الأولى: تزيل عنها القداسة والتميُّز. و في وصفها بالصفة الثانية: تمنعها من أيّ تدخل في شئون هذه الحياة، وتحصر تداولها والاهتمام بها في دور العبادة فقط لا غير.

وهذه الرؤية، وإن لم تصبح ذات سيادة مطلقة بين جميع أبناء الأمَّة المسلمة لكنّ ممّا لا يكابر فيه أنّ النخب الحاكمة، والمتعلّمة في بلاد المسلمين تتبنّى في غالبيتها هذه الرؤية بمستويات مختلفة.

وفي مثل هذه البيئآت الهجين المختلطة لا بد من العناية بتحديد مفهوم "القراءة" والتلاوة" بدقّة، مع وضع المقاييس، وبيان الضوابط اللازمة للتعامل مع القرآن المجيد تعاملاً سليماً لا يرفضه القرآن الكريم ولا يأباه.

إنّ الأمر لم يقف لدى القوم في نظرهم للكتب المنزلة - عندما ذكرنا- بل تجاوز ذلك كثيراً. فاليهود المسيحيون يرون أن اليهوديَّة قد انتجت فرعين، هما النصرانيَّة والإسلام. وإن كان علماء الديانتين يتبنّون من مناهج البحث ما ينسجم و توجهاتهم الدينيّة. فهم يثبتون المصدر الإلهيّ للديانتين: اليهوديَّة والنصرانية، وينكرون ذلك على الإسلام ويعتبرونه بشريّ المصدر. أما القرآن فإنّه يثبت "إلهيَّة المصدر" للأديان الثلاثة.

إنّ النأي بالقرآن الكريم عن تلك المناهج المغرضة في القراءة ليس في صالح المسلمين - وحدهم- بل هو في صالح البشريّة كذلك.

لقد ظهرت في أهل الكتاب من يهود ونصارى مدارس عديدة اهتمت بتفكيك كتبهم الدينيَّة ونقدها وأسّسوا للنقد مدارس عديدة، ومعارف متنوعة لكل منها أساليبها ومناهجها في النقد والتفكيك. وأعملوا فيها معاول الهدم المختلفة حتى جعلوها كالرميم. ولم يعد - بعد كل ما فعلوه فيها لها - من خصائصها الأول شيء يذكر. وكل ما فعلوه لم يمكنهم من تمييز

ما هو صادق، ويعد -حقاً- مما أوحى إلى موسى وعيسى، وما هو كاذب يعدُّ فيما نسب إليهم زوراً وبهتاناً. ونحن نؤمن بأنّ التحريف قد وقع في كل من الكتابين؛ التوراة والإنجيل. والنقد العلميّ الحديث قد أثبت هذا التحريف، وذلك - في نظرى- من "دلائل الإعجاز القرآنيّ". فقد وافقت كل الكشوفات والدراسات النقديَّة القرآن الكريم فيما ذكره عن هذه الكتب قبل قرون عديدة من تحريفها[13].

---

[13] لعامائنا مواقف عديدة حول "تحريف التوراة" يجدر بطالب العلم الاطلاع عليها.

قال قوم: إنَّها (أي التوراة) كلّها مُبَدَّلة مغيرة، ليست هي التوراة، التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، وتعرض هؤلاء لتناقُضِها وتكذيب بعضها البعض. وممن ذهب إلى هذا الرأي ابن حزم الأندلسي في كتابيه "الفِصَل في الملل والنحل"، و" جمهرة الأنساب" والسمو أل بن يهودا المغربي ورحمة الله الهندي. فقد جاء في كتاب "بذل المجهود في إفحام اليهود" لمؤلفه صموئيل بن يهوذا بن عباس المغربي، وهو من يهود المغرب، انتقل إلى بغداد وأقام فيها زمناً، ثم رحل إلى مراغة حيث اعتنق الإسلام وتوفي عام 570 للهجرة، ما يلي: (لما رأى عزرا أن القوم قد أُحرق هيكلهم وزالت دولتهم وتفرق شملهم، ورفع كتابهم، جمع من محفوظاته ومن النصوص التي يحفظها الكهنة ما لفق منه هذه التوراة التي في أيديهم. ولذلك بالغوا في تعظيم عزرا غاية المبالغة، وزعموا أن النور إلى الآن يظهر في قبره، الذي عند البطائح بالعراق، لأنه عمل لهم كتاباً يحفظ لهم دينهم، فهذه التوراة التي في أيديهم على الحقيقة كتاب عزرا) انظر: أسعد زروق: التلمود والصهيونية، ص 43-44.

ويقول ابن حزم الظاهري في كتابه الفصل: (هنا انتهى ما أخرجناه من توراة اليهود وكتبهم من الكذب الظاهر والمناقضات اللائحة التي لا شك معه في أنها كتب مبدلة محرفة مكذوبة، وشريعةٌ موضوعة مستعملة من أكابرهم و لم يبق بأيديهم بعد هذا شيء أصلاً ولا بقيَ من فساد دينهم شبهة بوجهٍ من الوجوه، والحمد لله رب العالمين). وقد حملَ ابنُ حزم بشدة على (قوم من المسلمين ينكرون بجهلهم القولَ بأنَّ التوراة والإنجيل اللذين بأيدي اليهود والنصارى محرفان) انظر: الفصل، (224/1) طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (1395هـ،1975م)، وكتابه الآخر جمهرة النساب، (ص8)، تحقيق الدكتور عبد السلام هارون، القاهرة، 1968م). ففيه توكيدٌ أشدُّ على أن التوراة مصنوعة مُوَلَّدة ليست التي أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام، ألبتَّه. وراجع: د. محمود علي حماية: ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان. ود. عرفان عبد الحميد فتاح "اليهودية" مرجع سابق.

وذهبت طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام، مثل الإمام البخاري في "صحيحه" والرازي في "تفسيره" إلى أن التبديل وقع في التأويل لا في التتريل. ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها ولا يعلم عدد نسخها إلاّ الله؟ ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع تلك النسخ بحيث لا تبقى نسخة إلا مبدَّلة مغيرة. وهذا الذي نقل إن صحَّ عنهما فهو قول ساقط لا يؤبه له. أو هفوة من هفوات الكبار وهفوات الكبار على أقدارهم.

وذهبت طائفة منهم ابن تيمية إلى أنّه قد زيد وغير ألفاظ يسيرة منها، ولكن أكثرها باق على ما نزل عليه والتبديل في اليسير منها جداً ولا ندري مستنده في هذا. يقول القاسمي في تفسيره (2085/6): "شرائع هذه الكتب وأوامرها ونواهيها هي أقلُّ أقسامها تحريفاً، وأكثرُ التحريف في القصص والأخبار والعقائد وما ماثلها".

والذي يصح عندنا ونرجحه، ما نص عليه القرآن الكريم وما ذكره صاحب "تفسير المنار" (156/3): التوراة في القرآن هي ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام ليبلغه قومه لعلهم يهتدون. وقد بين الله تعالى أن قومه لم يحفظوه كله فقال في سورة المائدة:﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ [المائدة:13]، كما أخبر في آيات أخر أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه وذلك فيما حفظوه واعتقدوه.

لقد أخبرنا الله – تعالى- أن اليهود لم يحفظوا ما انزل إليهم من ربهم و لم يكونوا أمناء عليه فنسب القرآن إلى حفظة التوراة أموراً منها:

أ- كتمان الحق: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:147]

ب- التحريف والتبديل:﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء:146]

ت- الوضع والاختلاف:﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة:79]

ث- النسيان والاهمال: ﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾[المائدة:13]

ج- الكذب والتدليس: ﴿وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 42]

ح- قتل الأنبياء: ﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [النساء:155] من ذلك:

- أن لوطاً زنى بابنتيه (فحملت ابنتا لوط من أبيهما)- سفر التكوين:30/19-31.
- وأن النبي (داوود زنى بامرأة وحملت منه بالزنا)- سفر صموئيل: 21/1.

وليتبيَّن لطلبة العلم خطورة وخطأ التسليم بالتعامل مع القرآن المجيد بمثل المستوى الذي تعاملوا به مع "العهدين" القديم والجديد،- ومن نفس المنطلقات سنورد بعض التفاصيل عما حدث للعهد القديم بعد إخضاعهم له للمناهج التاريخية ومناهج دراسات الآثار "الآركيولوجي".

"العهد القديم" TENAKH (تناخ) عبارة عن مجموعة الأسفار- التي جمعها رجال (المجمع الأكبر) الذي تأسَّس عقب العودة من السبي البابلي وقد تألف من مائة وعشرين عضواً. أخذوا على عاتقهم النظر في شئون الشعب اليهوديّ، فوضعوا الصلوات اليوميَّة. وكان المجمع مؤلّفاً من مشاهير أحبارهم، مثل عزرا، نحميا، زوربابل، ودانيال، وحجاي، وزكريا، وملاخي ومردخاي وغيرهم. وهناك أقوال أخرى لا نطيل بذكرها.

• وأن (سليمان ارتد في آخر عمره بترغيب من زوجاته فعبد الأصنام)- سفر الملوك الأول:11/ 17 -

• وأن النبي هوشع تزوج من زانية (قال الرب لهوشع: خذ لك امرأة زنى)- سفر يوشع: 2/1.

وقد جمع عزرا الاسفار المتبقيّة وما قرّره المجمع المذكور عام (444) ق.م، وصارت تعرف بينهم بشريعة موسى، ومجمـوع أسفارها أربعة وعشرون سفراً[14]. والحقيقة فإنّ مجموع الاسفار تسعة وثلاثون[15] ولا يعترف السامريّون إلا بسبعة منها. ويضم العهد القديم عنـد أتبـاع الكنيـستين الكاثوليكيَّـة الغربيَّـة والأرثوذكسيَّة الشرقيَّة قسماً رابعاً يعرف باسم " المنحـولات" APOCRYPHA و"التوراة" هي القسم الأول من العهد القديم، وتشتمل على الأسفار الخمسة، وهي:

سفر التكوين: "الخلق BERESHIT- GENRSUS"

وسفر الخروج: "EXODUS- SHEMOT "

وسفر اللاّويّين: "LEVITICUS-VAYIRKA "

وسفر العدد: "NUMBERS-BAMIDBAR "

وسفر التثنية: "DEUTERONOMY-DABARIM "

---

(14) انظر "اليهوديّة" عرض تاريخيٌّ، والحركات الحديثة في اليهودية د. عرفان عبد الحميد فتاح/ عمان/دار عمار/الأردن سنة 1996 ودار البيارق- بيروت/ لبنان.

(15) المرجع نفسه.

أمّا سفر التكوين فقد تناول قصة خلق العالم، وقصة آدم وحواء وأولادهما ونوح والطوفان. ثم قصة إبراهيم وأبنائه إسحاق ويعقوب وعيسو. ثم قصة يوسف، وبعض إشارات إلى إسماعيل وأمّه هاجر. وهجرة العبرانيّين إلى مصر (مصرايم) بسبب القحط العظيم الذي أصابهم.

وأمّا "سفر الخروج" فقد تناول قصة خروج اليهود من مصر بقيادة موسى، وقصة موسى منذ ولادته. وبعثته وعلاقته بفرعون وحواراته معه، وصعود الجبل، وتلقيه الألواح والوصايا العشر.

وأمّا "سفر اللاويّين" فهو سفر الأخبار - أي ما يشبه بعض أنواع الأحاديث والسيرة -عندنا- وتناول هذا السفر مجموعة من الأحكام مثل القربان والطهارة وأحكام الأطعمة، وبعض الفرائض والعقوبات.

وفي "سفر العدد" جرى تناول بعض التشريعات، وبعض أخبار موسى، وبني إسرائيل في التيه، وقصة عجل السامريّ.

وأمّا "سفر التثنية" - يعني "إعادة الناموس" فقد ورد فيه أقوال لموسى في الحوادث والأخبار الهامّة، وشيء من الوصايا والأحكام والفرائض التي أوصاهم الله بها والإنذارات ونشيد موسى للشعب وبركته.

و"العهد القديم" كما يطلق عليه - الآن- يتألف إضافة لتلك الأسفار من أقسام إضافيَّة؛ فالقسم الثاني من العهد القديم، أو ما يطلقون عليه "تناخ" (TENAKH) يتألف من واحد وعشرين سفراً، منها ستة أسفار تعرف بأسفار الأنبياء الأولين. وتبحث في تاريخ إسرائيل بعد موسى - عليه السلام- إلى خراب الهيكل وأورشليم. وهي أسفار يوشع والقضاة وصموئيل الأول والثاني. ويلي هذا القسم أسفار الأنبياء الآخرين، وعددها خمسة عشر سفراً.

وهناك قسم ثالث للعهد القديم وهو السفر الذي يحتوي على الحِكَمِ والأمثال والمزامير والأخبار التاريخيّة الخاصّة باليهود بعد خراب الهيكل. ويسمَّى هذا القسم بالكتب والصحف "COLLECTED WRITINGST- KETUBIM" وعدد هذه

الكتب أو الصحف سبع كبيرة هي : مزامير الأمثـــال، أيـــوب دانيال، عزرا، نحميا، أخبار الأيام الأول والثاني. وخمسة صغيرة، هي: روث، نشيد الإنشاد، الجامعة، المراثي، استير.

ولقد استغرق جمع وتدوين محتويات العهد القـــديم فتـــرة زمنيّة تزيد على الألف عام من سنة ..2 مائتين ق.م إلى ســـنة ...1 ألف م. ويرى رجال الدين اليهود أن ما نزل على موسى وأنبياء بني إسرائيل من بعده قد نقل شفاهاً بالتواتر حتى تمكـــن رجال المجمع الأكبر (السنهدرين)[16] (SANHEDRIN).

وفي دراسة تاريخيَّة مفصّلة نشرت في مجلة تايم الأمريكيّة في (ديسمبر 1995) كتبـــها MICHAEL LEMANICK انتـــهى كاتب الدراسة: أنّ ما ورد في التوراة عن إبراهيم واخلافه مـــن بعده، وقصة خروج الموسويِّين من مصر، وعبور البحر وشخصيّة موسى – نفسه- ونزول الوحي عليه في سيناء وأخبـــار يوشـــع وسليمان كل ذلك حوادث لا دليل تـــاريخيٌّ عليهـــا أو علـــى

([16]) أكد د. عرفان عبد الحميد أن هذه الكلمة بالنون، لا بالميم كما هو شائع SANHEDRIM

وقوعها، ولا شواهد من التنقيبات الآثاريَّة على أنّها وقائع تاريخيَّة وقعت فعلاً، ومن ثمّ فلا يمكن اعتبارها - جميعاً- أحداثاً واقعيَّة.

ونقل صاحب المقال عن JOHN VAN SETER أنّه قد أعلن باسم أعضاء "جمعيَّة الأدب التوراتيّ" و"الأكاديميَّة الأمريكيّة للدين".

1- أن الاسفار الخمسة لم تدوّن إلاّ إبان الأسر البـــابلي أي بعد عصر موسى بسبعة قرون.

2- وأنّه لا وجود لموسى، ولا لقصّة خروجه بقومه من مصر العبوديّة، وليس ثمة وحي نزل بسيناء. فهذه -كلّها- من قبيـــل الأساطير المختلقة.

ولم ينج "الإنجيل أو العهد الجديد" من حمـــلات التفنيـــد والتكذيب والتأكيد على أنّه أساطير مختلقة لا أصل لها. وأنّ قصة محاكمة المسيح والأحداث المتعلقة بتعذيبه وصلبه وقيامته - كلّها- لا تعدو أن تكون أساطير لا صلة تربطها بوقائع التاريخ"[17].

---

(17) راجع TIME العدد الثالث من أعداد شهر ديسمبر لسنة 1995

ولسنا في معرض دراسة كل آثار التفكيك والنقد في الكتابين الدينيّين لليهود وللنصارى أي: العهدين: القديم والجديد، بل هي مجرد إشارات إلى أن الثقة المطلقة بهذه المناهج التي استخدمت في نقد "العهدين" ما تزال في حاجة إلى ما يعززها. وأنَّ هذه الطرق التي أسموها "بالمناهج" لم تكتسب الصفة العلميَّة بعد.

فإنّ تلك الطرق مع طرق البحث التاريخيّ كادت أن تنتهي في القرن التاسع عشر إلى إنكار صحة كل ما ورد في "التوراة" منسوباً إلى موسى. بل أصبحت شخصيّة موسى – نفسها- مشكوكاً في أنّ لها وجوداً تاريخيّاً حقيقيّاً، حيث إنّ كثيراً من أولئك النقاد قد قالوا بأنّ شخصيَّة موسى شخصيّة خرافيّة لا وجود تاريخيٌّ لها. وأنّ خيال الشعب المضطهد هو الذي ابتكرها. لكن التنقيبات الآثاريَّة التي أجريت في فلسطين انتهت بالعثور على مجموعة من المخطوطات – التي أطلقوا عليها "مخطوطات البحر الميت" قد عُثر فيها على ما شجع بعض العلماء على إعادة النظر في بعض ما كانوا قد قرّروه سابقاً أو رجحوه من عدم

أصالة العهد القديم، والشك في صحته ونسبته إلى موسى، بل التشكيك في الوجود التاريخي لشخصيّة موسى نفسه.

خطورة إخضاع القرآن لمثل هذا النوع من التعامل اللامسئول:

إنّ النقد التاريخيّ الذي أخضعت له الكتب الدينيَّة لدى اليهود والنصارى قد حولتهما إلى مصادر لا يمكنْ الوثوق بها ولا الاعتماد عليها لا في مجال الدين ولا في مجال التاريخ. ولم يكن ذلك – والحق يقال- عن أدلة علميَّة يقينيَّة، بل عن ظنون وشكوك وموازين اخترعوها، واسبغوا عليها صفة العلميَّة والمعرفيَّة.

إنّنا لم نستهدف بيان سائر الآثار السلبيّة والايجابيّة التي أدت عمليات النقد والتفكيك للكتب الدينيَّة إليها لكنَّ ما استهدفناه من هذه الوقفة أن ننبِّه إلى الآثار الخطيرة التي قد تترتَّب على إخضاع القرآن المجيد إلى هذا النوع من التعامل التي جرى مع "التوراة والإنجيل". وإن كنّا لا نخشى على القرآن المجيد من أيَّة منظومة نقديَّة مهما كانت؛ فالقرآن الكريم – نفسه- قد تحدّى الجن والإنس، وطلب المبارزة والمنازلة، فنحن لا نخشى

على القرآن من كل وسائلهم، بل نرحِّب بها. لكنّنا ندرك أنّ للقرآن الكريم أسلوباً وسياقاً وخصائص ومزايا تجعله ذا منهج خاصٍّ لمن يريد التعامل معه أو الاقتراب منه بنقد أو سواه.

ومنهج التعامل معه منهج له محدّداته وشروطه التي لا بدَّ من توافرها، فهناك شروطٍ في القارئ، وفي كيفيَّة القراءة وفي الهدف منها وطبيعتها، والمستوى العقليّ والنفسيّ لممارس القراءة. ومن يريد النقد فإنّ للراغب في ممارسة النقد لهذا الكتاب العزيز قواعد وشروطاً لا بد من توافرها في النقد، فالنقد في أصله عملية معرفيَّة بنائيَّة، وليست متمحِّضة للهدم، أو السباب. ولقد تناول القرآن المجيد – نفسه- كثيراً من جوانب النقد الذي وجّه إليه وناقشها ورد عليها.فنحن لا نخشى النقد المنهجيّ المعرفيّ على القرآن.

لكن هؤلاء ينطلقون من منهجيَّة ظنيَّة احتماليّة حدّدوها بأنفسهم "للبحث التاريخيّ" وبحث عن شواهد للبحث التاريخيّ في "الدراسات الآثاريَّة" أو "الاركيولوجي". ونحن لا ننفي بالكليَّة سلامة بعض خطوات هذه المناهج؛ لأنّ القرآن نبَّه إلى

أهمّيَّة الاستفادة بها على أن لا ينفصل البحث فيها عن الانطلاق من الإيمان بوجود خالق للإنسان والكون والحياة والأحياء والزمان والمكان والتاريخ متّصف بكل صفات الكمال، مبّرأ عن كل صفات النقصان ليس ببشر ولا يشبه البشر ولا تدركه الأبصار فإذا انطلق الباحث الناقد من هذا المنطلق فإنّ عليه أن يستخدم عقله وفقاً "لمنهج النظر العقليّ"، ثم يعطي لقوى الوعي فيه كل الفرص لإعمالها وتشغيلها، ومنها فطرته التي فطره الله عليها، ثم يقوم بتوظيف ما شاء من المناهج التي تصل إليها طاقاته، وتؤكدها دراساته.

القـــرآن والتحــــدي:

والقرآن المجيد ذو خطاب عالميّ نزل بلسان عربيّ مبين تحدى فيمن تحدى أهل اللغة التي نزل بلسانها، وتنزل في التحدي، وأثبت أنّه لا يبارى ولا يجارى، و"لسان القرآن"[18]

---

[18]وراجع رسالتنا المعنونه ب"لسان القرآن ومستقبل الأمَّة القطب" ضمن سلسلة دراسات قرآنيّة، وهي الحلقة الرابعة في هذه السلسلة.

لا تجد في الناطقين بالعربيَّة إلا نوادر يستطيعون العروج إلى عليائه. ومنذ البداية أكد القرآن على قيام علاقة مباشرة مع الوجدان والفطرة والعقل والقلب الإنسانيّ ويشتبك مع المسلّمات الإنسانيَّة في جدل يفرض أحد موقفين موقف التسليم والارتياح فتبدأ مرحلة عطائه وكرمه. أو مرحلة الرفض، فتبدأ عوارض ذلك الرفض بالظهور على ذلك الإنسان الرافض بشكل عناد وجحود واستكبار لا مسوّغ له وغير ذلك من أعراض. ومن خواصِّه أن يكون شفاءاً للأولين وسقماً للرافضين، هدى للمتقين وعمى وضلالاً على الجاحدين فمن يريد نقد القرآن فليتزود بما يظن أنّه يمكنه من ذلك ولن يفعل. فالقرآن قد سما على البحث التاريخيّ، واستوعب فلسفة التاريخ وتجاوزها. وسما على "البحث والتنقيب الآركيولوجي"، ونبّه إلى منهج خاصّ في دراسته أقرب إلى العلم من مناهج التنقيب البشريّة الراهنة. التي لا تتَّبع إلاّ الظن. وحين تحدى الخلق -كلّهم- على أن يأتوا بمثله، وثبت عجزهم كان ذلك إعلاناً عن عجزهم عن الإحاطة بعلمه فمن لا يحيط بشيء علماً كيف ينقده، وكيف يفككه، ولو

فرضنا – جدلاً – فيه القدرة على ذلك فكيف يعيد تركيب ما فكك ليصل إلى جوهر المعنى الذي يبحث عنه.

إنّ بعض أولئك الذين أضفي عليهم بعض أساتذهم من أهل الكتاب والمشركين ألقاب "مفكرين مسلمين" أو "مفكرين مستنيرين" ليوظفوهم في عمليّات التعامل اللّامسئول مع القرآن المجيد بمثل ما تعامل أساتذهم به مع "العهدين القديم والجديد"؛ لم يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من استعارة ما قاله أساتذهم من أهل الكتاب والمشركين في "العهدين"، وإسقاط تلك المقولات المترجمة على الكتاب العزيز– الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فجاءت مقولاهم تافهة متهافتة، لأنّهم قاسوا القرآن على العهدين متجاهلين الفروق التي لا تحصى بينه وبينهما؛ لأنّهم لم يكلّفوا أنفسهم عناء دراسة هذه الكتب بالقدر والشكل الذي تستحقه.

فإذا كنّا نؤكد على ضرورة تبنّي "مناهج علميَّة دقيقة" للتعامل مع القرآن فإنّنا نؤكد على ذلك لنحول بين القرآن المجيد وبين أولئك الذين يتّبعون ما تشابه من موضوعاته مع

موضوعات العهدين، ويلقون بكل ذلك النقد الذي وجّه إليهما في ساحة القرآن، فيشغلون الناس بها ولو إلى حين، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

كما يلتقطون مما عرف في تراثنا "بعلوم القرآن" بعض الروايات المتهافتة والموضوعة والضعيفة فيبنون عليها قصوراً من خيال مريض.

فإذا لا حظنا هذه الأمور ندرك – آنذاك- الضرورة الملحة للتأكيد على قواعد وضوابط التعامل مع القرآن لئلا يسقط الناس في تعامل مع القرآن، يحجب عنهم أنواره، بل يجعله عليهم عمى. وفي سلسلة كتبنا التي يجرى إصدارها تباعاً في "مكتبة الشروق الدوليّة" في القاهرة بعنوان "دراسات قرآنيَّة" نبّهنا فيها إلى كثير من هذه الضوابط وما يزال لدينا الكثير. وقد صدر منها لحد الآن أربع حلقات، ونتوقّع أن تبلغ العشرين حلقة إنشاء الله تعالى. فنحيل من يريد التوسع عليها.

* * * *

الجـــواب الثانــــــي:

قضيَّة "العقل والنقل" والعلاقة بينهما إشكاليَّة مورّدة إلى الساحة الإسلاميَّة. وقد نجمت هذه الإشكاليَّة عن الغفلة عـــن خصائص "الرسالة الخاتمة" كما بيَّنها الكتاب الحكـــيم؛ فهـــذه "الرسالة" رسالة خاتمة؛ لا رسالة نزلت أو تنزل مـــن الـــسماء بعدها إلى البشريَّة كافَّة إلى يوم الدين؛ وهي رسالة عالميَّة ليست خاصَّة ولا حصريَّة. فهي غير منحصرة في قـــوم أو زمـــان أو مكان. و"الرسول" - الذي حملها- صلّى الله عليه وآله وسلّم - خاتم النبيِّين لا نبيّ يأتي إلى الناس -بعـــده- إلى يـــوم الـــدين. و"الحاكميَّة" فيها لكتاب محفوظ معصوم معجز، معادل للكـــون وحركته، مستوعب متجاوز. و"شريعتها" شريعة تخفيف ورحمة، ناسخة لكل شرائع الإصر والأغلال والنكال.

وهذه" الرسالة الخاتمة" بعد وفاة رسول الله - صـــلّى الله عليه وآله وسلّم - وإلتحاقه بالرفيق الأعلى صار الكتاب العزيز بمثابة النبيّ المقيم في الأرض لا يضل من تمسَّك به أبداً.

وهذه الخصائص التي تميزت بها الرسالة الخاتمة لا يمكن أن يتصور أو يظن انفصال العقل فيها عن الرسالة؛ ولا ابتعاده عن الكتاب، ولا انفكاكه عن الشريعة، ولا تجاهله من الرسول. فكل خصائص الرسالة تنبّه وتؤكّد على اتّصال السمع والعقل في هذه الرسالة الخاتمة اتِّصالاً لا انفصال له ولا فصام بأي حال. لأنَّها – بكل خصائصها وأركانها- قد ازدوج فيها العقل والسمع وامتزج فيها الرأي والشرع، وارتبط فيها الكتاب المسطور بالكتاب المخلوق المنثور فلا يمكن أن يقال – والحالة هذه-: إنّ من الممكن قيام إشكالية مثل هذه في أمَّة تلقَّت مثل هذه الرسالة والتزمت بها، واعتصمت بالكتاب الكريم الذي اشتمل عليها.

فمنشأ الإشكاليَّة وطبيعتها غريبان تماماً لو أدركت خصائص هذه الرسالة الخاتمة.

لقد وُرّدت هذه الإشكاليّة لساحة "أمَّة الرسالة الخاتمة" من موارد غريبة عن موارد "الرسالة الخاتمة"، ومصادر "بعيدة عن مصادرها". وهي فيما نرى:

أولاً. الثقافة الشفويَّة التي كانت متداولة بين الشعوب الأميَّة التي خطبت بهذه الرسالة في مرحلة ما قبل الخطاب العالمي بها من الموروثات الكتابيَّة السابقة.

ثانياً. ثقافات الأمم التي دخلت الإسلام بثقافاتها وتاريخها وموروثاتها الدينيَّة، ولم تستطع الأمّة المسلمة أن تعيد بنائها عقليّاً ونفسيّاً بنموذج القرآن ومنهجه، فصارت تعمل على نوع من المواءمة بين موروثاتها الثقافيَّة وبين بعض ما جاء به الإسلام فيما هو ليس في دائرة العقيدة، أو المعلوم من الدين بالضرورة دون كبير حرج. وقد تقرأ بعض تلك الأفواج الداخلة في الإسلام، والمنضمَّة إلى أمَّة الإسلام بعض قضاياه بنماذجها الموروثة فدخلت تلك الموروثات ميادين الفكر الإسلامي، مثل هذه الإشكالية وقضايا القدر والجبر والاختيار و الاختلاف حول مصادر تقويم الفعل الإنسانيّ ومنشأ ذلك الفعل.وما إليها من قضايا احتلت موقع الصدارة بعد ذلك في فكرنا الكلاميّ والفلسفيّ.

ثالثاً: ترجمة تراث و"علوم الأوائل". وهذه الإشكالية تقع في بؤرته.

رابعاً: انقسام المسلمين بعد أن ارتخت أياديهم عن التمسُّك والاعتصام بحبل الله المتين – كتابه الكريم فصار بعضهم يستنصر على البعض الآخر بذلك التراث الموبوء.

خامساً: تبنّي بعض الحاكمين لأسباب سياسيَّة لبعض ذلك التراث المورَّد لبناء عصبيَّة خاصَّة به – كما فعل المأمون بتبنِّيه تراث الاعتزال. فطرحوا جملة من القضايا منها هذه القضيّة الإشكاليّة.

وخلاصتها: أنّ الأمَّة -كلّها- كانت قبل طرح هذه الإشكالية متفقة على "أهميَّة الفعل الإنسانيّ"، و"مسئوليّة الإنسان عما يفعل" في الدنيا والآخرة كل فعل بحسبه. وكل ما ورد الشرع بالأمر به ففعله حسن بحسبه وفي مستواه.وكل ما ورد الشرع بالنهي عنه فاجتنابه هو الحسن اللائق بالإنسان. ولم يثر أيّ جدال بين الصحابة وجيل التلقي في هذا الأمر ولم يلتفت أحد منهم إلى شيء من ذلك. ولكن بعد حدوث ما ذكرنا

تحول هذا الأمر إلى موضوع جدل أدى إلى وضع حواجز بين "العقل والنقل"، وجدال حول صلاحيّات كل منهما، والميادين التي لكلٍّ منها أن يتحرك فيها، والميادين التي ليس له أن يتحرك فيها. وفي هذا المقام نود أن نوضح هذه المسألة التي أثارت كل ذلك الجدل العقيم بجوانبها المختلفة لتُعرف كما هي؛ وليدرك الجميع أنّها قضيّة غريبة – تماماً- عن فكرنا الإسلاميّ لولا العوامل التي أقحمتها فيه.

إذا عرفت هذا فاعلم: أنّه لا خلاف بين أهل السنة والمعتزلة في أنَّ "الحاكم" هو: الله تعالى، لا حاكم سواه، كما هو مدلول قوله تعالى:﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّـه** ﴾[الأنعام:57] و(40و67) من سورة يوسف، وأنَّ "العقل" لا حاكميَّة له في شيء بالكلية.

وإنّما الخلاف بين الفريقين - هو: في أنَّ العقل هل يدرك أحكام الله – تعالى- في الأفعال، من غير افتقار إلى الشرع؟.

فقالت المعتزلة: نعم يدركها من غير افتقار إليه، بناء على قولهم بقاعدة "التحسين والتقبيح العقليَّين". وقال أهل السنة: لا يدركها، بل لا بدَّ من الشرع، بناء على نفيهم هذه القاعدة.

غير أن بعض المولِّفين من أهل السنّة، قد تساهلوا في ذكر عبارات تُوهم: أنَّ المعتزلة يذهبون إلى أنّ "الحاكم" هو: العقل. كقول ابن السبكي: "وحكمت المعتزلة العقل" مما حمل شارحه الجلال على تأويل عبارته هذه الموهمة لما ذكرنا: بأنَّ المراد منها الإدراك، لا الحكم. فراجع الجمع بشرحه (64/1-65) ونحو قول البيضاويّ: "الحاكم الشرع دون العقل" فراجع: نهاية السول(258/1)، وانظر: شرح ابن السبكي على المنهاج (85/1) ونحو قول العضد: "قالت المعتزلة: بل الحاكم بهما العقل". راجع المواقف للإيجيّ ص (529). ولكي يتضح الأمر أكثر نقول:

إن لفظ "الحاكم"[19] يطلق على معنيين، **أولهما**: مثبت الأحكام ومنشئها، ومصدرها ومجدِّدها.

([19]) راجع كتابنا "حاكميَّة القرآن" مصدر سابق

وثانيهما: مدركها ومظهرها، والمعرِّف لهـــا، والكاشـــف عنها.

أما بالنظر إلى المعنى الأول - وهو المراد منه عند الإطلاق- فلا خلاف بين المعتزلة وأهل السنة: في أنه هو الله – وحـــده- الذي جعل حاكميَّته في الرسالة الخاتمة في كتابه، وأنّ العقـــل لا يسمى به، وأنه لا دخل للعقل في إثبـــات الأحكـــام الـــشرعيَّة وإنشائها، وإصدراها وتجديدها. وبهذا قال سائر الأئمة، وأطبق عليه جميع الأمة.

وأما بالنظر إلى المعنى الثاني– فقد حدث الخلاف بينهم: في أنّه هل الشرع (يعني: أدلته) هو الذي يظهر الأحكام ويبينـــها، ويكشف عنها، ويهدي الخلق إليها ويبيِّن الجزاء المترتّب عليها. فلا يستقل العقل بإدراكها ومعرفتها؟ أم أنّ العقل يستقل بذلك، ولا يتوقف إدراكه لها، على ورود الشرع بها؟

فذهب إلى الأول أهل السنة، وقالوا: المظهـــر للأحكـــام الشرعيَّة وما يتعلق بها هو الشرع خاصَّة.

وذهب إلى الثاني المعتزلة، وقالوا: إنّ العقـــل يظهرهـــا، ويستقل بإدراكها، وليس معنى مذهبهم هذا: أن العقل ينفـــرد بإدراك جميع الحكام، ويستقل تمام الاستقلال به، وأنّه لا حاجة أصلا إلى ورود الشرع بها وإظهاره لها. فهذا ما لم يقل به أحـــد ممن يمت إلى الإسلام بصلة. وإنَّما معناه: أن العقل لا يتوقـــف إدراكه للأحكام وإظهاره لها على ورود الشرع بها، بل يمكنـــه - قبل وروده- أن يعرف شيئاً منها. أما بعد وروده، وتبينه فإنّه حينئذ يكون مؤكداً لما أدركه العقل، واهتدى إليه، فيكون كل من الشرع والعقل مبيِّناً، وليس التبيين خاصّاً بأحدهما. وســـيأتي ما يوضح ذلك ويؤكده. ولما كان هذا الخـــلاف مبنيّـــاً علـــى الخلاف في قاعدة التحسين والتقبيح العقليَّين: كان لا بد مـــن بيان معنى الحسن والقبح عند الفريقين. فنقـــول: بـــيّن الفخـــر الرازيّ :أن "الحسنَ" يطلق على ملاءمة الطبع و"القـــبح" علـــى منافرته. كحسن الحلو، وقبح المر. وكحسن إنقاذ الغرقى وقبح أخذ الأموال ظلماً.

ويطلق "الحسن" على صفة الكمال، و"القبح" على صفة كحسن العلم، وقبح الجهل وكحسن الكرم، وقبح البخل.

وهما بهذين المعنيين- عقليّان، أي يحكم بهما العقل، وذلك بالاتفاق بين أهل السنة والمعتزلة. كما صرح الإمام الرازي وغيره بذلك.

ويطلق "الحسن" على ترتُّب المدح في العاجل، والثواب في الآجل و"القبح" على ترتُّب الذم في العاجل، والعقاب في الآجل: كحسن الطاعة وقبح المعصية.

وهما - بهذا المعنى- محل خلاف بين أهل السنة والمعتزلة.

فقال أهل السنة: هما شرعيَّان، أي أنَّهما لا يؤخذان إلا من الشرع ولا يدركان إلا به.

وقالت المعتزلة: هما عقليّان، أي إنّ العقل قد يدركهما من غير توقف على الشرع. ولم يريدوا أنه يحكم بهما ويثبتهما في الأفعال. وذلك لما تقدم: من الاتفاق على أنّ الحاكم- بهذا المعنى- هو الله تعالى. وقد بنوا ذلك على: أن الفعل إمَّا أن يكون

مشتملا على المصلحة أو المفسدة، وأنّه يجب على الله - تعالى- أن يحكم بحسن الفعل، أو بقبحه على حسب ما يعلمه فيه: من المصلحة أو المفسدة. فإذا ما أدرك العقل مصلحة فعل، أو مفسدته، أدرك حكم الله بحسن هذا الفعل أو بقبحه: حيث كان حكمه - تعالى- بالحسن أو القبح، تابعاً لما اشتمل الفعل عليه: من تلك المصلحة أو المفسدة.

ثم إنّهم قد قسموا كلا من الحسن والقبح، ثلاثة أقسام:

الأول: ما يدركه العقل بالضرورة. كحسن الصدق النافع، وقبح الكذب الضار.

الثاني: ما يدركه بالنظر: كحسن الكذب النافع، وقبح الصدق الضار.

الثالث: ما يخفى على العقل فلا يدركه لا بالضرورة ولا بالنظر كحسن صوم آخر يوم من رمضان، وقبح صوم أول يوم من شوال.

وقالوا: إنّ الشرع - بالنسبة للقسمين الأولين- يكون مؤكداً لما تمكن العقل من إدراكه. هذا إذا أصاب العقل، أما لو فرض أن العقل قد أخطأ في إدراك الحسن والقبح فظن المصلحة فيما فيه مفسدة، فحكم بالحسن، أو ظن المفسدة فيما فيه مصلحة: فحكم بالقبح- يأتي الشرع حينئذ مبيِّناً للواقع، ويجب على المكلف اتبِّاع الشرع، وترك ما كان أدرك العقل عندهم. وهذا مما يؤكد ما سبق أن قررناه: من أنّه لا خلاف بين الفريقين في أنّ الحاكم هو الله - تعالى- وأن العقل مدرك فقط. فراجع: المعتمد لأبي الحسن البصري (288/2).

وهذه المسألة كلاميَّة قد ذكرت بأدلتها وسائر تفاصيلها في "علم الكلام"، ولكن الأصوليِّين اضطروا إلى بحثها في علم "أصول الفقه"، لأنّ المعتزلة بنوا عليها بعض المسائل الأصوليّة كالمسألتين الآتيتين. وراجع: ما كتبه شيخنا عبد الغني عبد الخالق في مذكرة أصول الفقه ص (65/60).

قلت: هذان هما المذهبان المشهوران المتداولان بين الأصوليِّين في هذه المسألة.

وقد نقل الشيخ بخيت في سلم الوصول مذهباً ثالثاً في المسألة، ونسبه إلى المحقّقين من الماتريدية - الحنفيَّة- ووصفه بأنَّه المذهب الوسط الذي خرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

وخلاصته: أنّهم يقولون بأنّ الفعل المأمور به لا بد أن يكون قبل أن يؤمر به صالحاً لأن يؤمر به: بأن تكون فيه مصلحة تقتضي حسنه، وتجعله صالحاً لأن يكون مناطاً للثواب على الفعل، والعقاب على الترك. ولابد أن يكون الفعل المنهى عنه - قبل النهي- صالحاً لأن ينهى عنه بأن يكون فيه مفسدة تقتضي قبحه وتجعله صالحاً لأن ينهى عنه وأن يكون مناطاً للعقاب على الفعل، والثواب على الكف عنه.

فالحسن والقبح: بمعنى صلاحيَّة الفعل لأن يؤمر به ويجعل مناطاً للثواب، أو ينهى عنه ويكون مناطاً للعقاب فعلا، وللثواب كفا عنه أو مناطاً للثواب كفا عنه فقط. عقليّان عند المعتزلة وجميع الحنفية أي: يمكن أن يدركهما العقل بدون توقف على ورود الشرع بنزول الكلام اللفظيّ. ففي هذا القدر وافقوا

المعتزلة. ثم اختلفوا في أنّهما عند إدراكهما هل يستلزمان حكماً في فعل العبد، ويكون ما في الفعل من المصلحة والمفسدة دليلا على حكم الله في ذلك الفعل، أو لا يستلزمان ما ذكر بالمعنى المذكور؟ بالأول قالت المعتزلة، وعليه بنوا قولهم بوجود الحكم قبل إرسال الرسل، ونزول الخطاب اللّفظي. وقال أكثر الحنفية بالثاني وعليه بنوا موافقتهم للجمهور بنفي الأحكام قبل الرسل ونزول الخطاب اللفظيّ.

وأما بقيّة الحنفيَّة، فكالمعتزلة، إلا أنّهم خصُّوا الاستلزام المذكور بالإيمان والكفر، وأما في باقي الأحكام فكالمحققين من الحنفية.

فأصحاب هذا المذهب يوافقون الأشاعرة في أنّه لا حكم قبل البعثة لأحد من الرسل، ويخالفونهم في وجود صفتي حسن وقبح تابعين لما في الأفعال من مصلحة أو مفسدة لذاتها، أو لصفة من صفاتها أو جهة من جهاتها، ففي هذا يوافقون المعتزلة، ويخالفونهم في التزامهما حكماً للأفعال من وجوب وحرمة

وسواهما، فلا يلزم عندهم من كون الفعل مصلحة وحسناً، أو مفسدة وقبيحاً أن يكون لله فيه حكم قبل البعثة.

وقد عاتب الشيخ بخيت كتّاب الأصول من الشافعيّة إهمالهم هذا المذهب المذكور. فراجع سلم الوصول (1/82-86)، وانظر أيضاً (259-262) منه.

كما أنه عقب على حصر أفعال العبد بالاضطرار والاتفاق واستدلال الفخر الرازي عليه بقوله: "وأقول: إنّ ما قاله الإمام أي: الرازي على طوله باطل عقلا وشرعاً. أما بطلانه عقلا: فلأنا لا نسلّم أن أفعال العباد منحصرة فيما قاله، بل هناك قسم ثالث... وهو الفعل الذي للعبد فيه كسب وقصد..." الخ.

وأما بطلانه شرعاً فلأنّ انحصار أفعال العباد فيما ذكر يؤدي إلى بطلان التكاليف، ومصادم لآيات القرآن والسنّة ولإجماع الأمّة. ثم شرع في بيان مصادمته لذلك. فراجع: ما قاله في (1/260-262).

وجواباً على عتبه على من أهمل ذكر هذا المذهب من الأصوليِّين، نقول: لعل مما يرفع عتابَ الشيخ عنهم ذلك أنَّه - في حقيقته- ليس بمذهب ثالث في هذه المسألة، وإنما هو مذهب المعتزلة بعينه، ومن ذكر مذهب المعتزلة في هذه المسألة فقد ذكره. ومفارقتهم المعتزلة في لازم من لوازم التسليم بها - وهو حكم الأفعال قبل البعثة- لا ينفي موافقتهم لهم في أصل قاعدة التحسين والتقبيح العقليين. وهو أهم ما فيها.

أما ما صرَّح به: من بطلان دليل الفخر الرازي عقلا، ومصادمته للكتاب والسنة والإجماع - على حد قوله- فهو ما عجزت المعتزلة عن التصريح به. وكل ما وجَّهوه إليه بعد المناقشات المذكورة في متن المحصول أنَّه دليل إلزاميّ لا يحسن التشبُّث به في مسألة كهذه. فأرجعوا الأمر إلى الحسن والقبح. ولنعد الآن لمناقشة ما أورده الشيخ بخيت على هذا الدليل وزعم أنه يبطله.

أما منعه حصر أفعال العباد بالقسمين الذين ذكرهما الإمام الرازي، وادعاؤه بوجود قسم ثالث - هو الفعل الذي للعبد فيه

كسب- وقصد فمردود بأنّ الكسب - نفسه- مهما اختلفت فيه التفاسير مخلوق لله - تعالى-: كفعل العبد نفسه. والدليل على خلق الله -تعالى- حركة الاضطرار قائم في خلق حركة الاكتساب. وانظر: اللمع للأشعري ص (74) فمآل هذه الأفعال التي فيها كسب إلى الاضطرار -أيضاً-، وهذه المسألة تعود إلى مسألة "خلق الأعمال"، والإمام الرازي جار فيها على أصل الأشاعرة، ودليله من هذا الجانب لا يصطدم بما قالوه من "الكسب"، ومن أراد التوسع في هذا الباب فليرجع إلى هذه المسألة في الكتب الكلاميَّة المبسوطة.مثل "نهاية العقول" للفخر.

أما قوله بأنّه يؤدي إلى بطلان التكليف فإن رسول الله - عليه الصلاة والسلام- روى عنه أنّه حين أخبر بعض أصحابه بحديث "القدر" قالوا: أفلا نتكل على كتابنا؟ قال: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له". والتكليف عند الفخر إحسان ورحمة من الله لعباده راجع: التفسير الكبير (153/4).ط.الخيرية.

أما ادعاؤه بأنّ هذا الدليل يصطدم بقوله ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة:286] فإنّه راجع إلى مسألة

"التكليف بما لا يطاق"، وهي- أيضا- مسألة كلاميَّة، وأهل السنة ومنهم الأشاعرة قائلون "بجواز التكليف بما لا يطاق عقلاً وإن لم يقولوا بالوقوع" فإنّه تعالى: ﴿ **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء:23] أما قوله: "وأمّا مصادمته للسنَّة فللأحاديث التي لا تحصى الدالة على أن للعباد "عملا" — فقد كان عليه أن يبِّين هذه الأحاديث!! على أنّه في "نسبة عمل العبد لفظاً إليه"، ولكن هذه النسبة عند الأشاعرة باعتباره محلا للفعل لا باعتباره فاعلاً أصليّاً وانظر: اللمع ص (84). هذا ونحن لا نرى الوقوف طويلا في مناقشة ما أورده الشيخ بخيت على دليل الإمام الرازي؛ حيث هو جزء مما أورده المعتزلة عليه، وكتبه وكتب غيره من الأشاعرة حافلة بمناقشة ذلك في المسائل التي أشرنا إليها. ونحن نقرّ هذه المساجلات نشعر بأسف شديد أن هؤلاء الأئمة قد شغلوا أنفسهم والأمة بهذه المجادلات العقيمة!! فإنّ لله وإنا إليه راجعون.

ولكن ما دام الشيخ قد تعرض إلى مسألة "خلق الأعمال". فإنَّ من اللاّئق أن نذكر ما قاله - الإمام الرازي- في التفسير بعد

ذكره دليل المرجِّح هذا وإثباته الجبَر به – وهو قوله "فهذه مسألة من أعظم المسائل الإسلاميَّة، وأكثرها شعباً، وأشدها شغباً".

ويحكى أنَّ الإمام أبا القاسم الأنصاريَّ سئل عن تكفير المعتزلة في هذه المسألة فقال: "لا: لأنّهم نزَّهوه!! فسئل عن أهل السنة (أي: عن تكفيرهم) فقال: لا: لأنّهم عَظَّموه!! والمعنى أن كلا الفريقين ما طلب إلا إثبات جلال الله، وعلو كبريائه!! إلا أن أهل السنة وقع نظرهم على "العظمة" فقالوا: ينبغي أن يكون هو الموجد، ولا موجد سواه. والمعتزلة وقع نظرهم على "الحكمة"، فقالوا: لا يليق بجلال حضرته هذه القبائح".

ثم قال الفخر: "وأقول: ها هنا سر آخر - وهو: أنّ إثبات الإله يلجىء إلى القول بالجبر: لأنَّ الفاعليَّة لو لم تتوقف على الداعية: لزم وقوع الممكن من غير مرجِّح- وهو نفي الصانع، ولو توقفت: لزم الجبر.

وإثبات الرسل يلجئ إلى القول بالقدرة، لأنّه لو لم يقدر العبد على الفعل فأيُّ فائدة في بعثة الرسل وإنزال الكتب!

بل ها هنا سر آخر هو فوق الكل- وهو: أنّا لما رجعنا إلى الفطرة السليمة، والعقل الأول، وجدنا أن ما استوى الوجود والعدم يالنسبة إليه لا يترجّح أحدهما على الآخر إلا لمرجِّح، وهذا يقتضي الجبر!!!

ونجد أيضاً تفرقة بديهيَّة بين الحركات الاختياريَّة، والحركات الاضطراريَّة، وجزماً بديهيّاً بحسن المدح وقبح الذم، والأمر والنهي، وذلك يقتضي مذهب المعتزلة!!!

فكأنَّ هذه المسألة وقعت في حيّز التعارض بحسب التوحيد والتتريه، وبحسب الدلائل السمعيَّة. فلهذه المآخذ التي شرحناها والأسرار التي كشفنا عن حقائقها: صعبت المسألة وغمضت وعظمت. فنسأل الله العظيم أن يوفقنا للحق وأن يختم عاقبتنا بالخير. آمين رب العالمين. فراجع: التفسير (185/1) وانظر نحو هذا في (153/4).

إنّ ما عرضناه بطوله بالرغم من تعقيده، ومن كل ما فيه يرينا جانباً مهماً من جوانب أزمتنا الفكريَّة. فهؤلاء الأئمة قد أضاعوا الكثير من نفائس الأعمار والأوقات في جدل عقيم

ومناقشات لا طائل تحتها وهدى القرآن فيها واضح بيِّن لم يكن الكشف عنه بالأمر المتعذّر أو العسير لو شاء القوم وأرادوا ولكن قدّر الله وما شاء فعل.

ولذلك فإن هذا النوع من الاشكاليّات لا ينبغي الاسترسال فيها بعيداً عن القرآن الكريم، وهديه ونوره الذي ينفي "الجبر" ويقرّر "حريَّة الاختيار" فيما يزيد عن مائتي آية من آيات الكتاب!!

ولا ينبغي أن يستدرج الذين آتاهم الله العلم بكتاب فصَّله على علم – إلى متاهات التفلسف العاطل، والفكر الباطل.

الدراسات المعاصرة:

ولكي نصل إلى تصور نرجو أن يكون مغنياً عن سواه في معالجة هذه الثنائية نقول:

لقد كثرت الدراسات والكتابات التي تتحدث عن العقل المسلم، والعقل العربي وغيرهما من العقول، فكتب د.حامد ربيع سلسلة مقالات في "احتواء العقل المصري" ود. طه عبد الرحمن

"العمل الديني وتجديد العقل" و"التكوثر العقلي" "العقل المسدّد" و عبد الحميد أبو سليمان"أزمة العقل المسلم" ود.برهان غليون "اغتيال العقل العربي"، ود.محمد عابد الجابري "تكوين العقل العربي" و"بنية العقل العربي"، وألف د.الجوزو مفهوم "العقل والقلب في القرآن والسنّة". وكذلك كتب د. حسن حنفي ود.محمد أركون، وكتبت دراسات جامعية في "العقل عند الأشاعرة" و "العقل عند الشيعة الامامية"، وحقق بعض الكاتبين بعض كتب المتقدمين ومقالاتهم مثل "العقل وفهم القرآن" للحارث المحاسبي (ت 243هـ/857م) و"العقل عند ابن رشد" وغير ذلك. وقد كنت شرعت في دراسة عن "العقل في محاولة لقول شيء أشبه ما يكون "بفصل المقال فيما بين العقل والوحي من الاتصال والانفصال" وبعد أن قطعت في البحث شوطاً، وكتبت فيه ما يزيد عن تسعين صفحة، حالت كثرة المشاغل بيني وبين إتمامه، فلعل الله ينسأ في الجل ويعين على إتمامه.

ولكي تتضح المسألة لأبنائنا أكثر فسنذكر باختصار شيئاً عن "العقل" لدى الأصوليّين، لعل ذلك يساعد في توضيح وتحرير موضع التراع بينهم.

حقيقة العقل:؟!

لم يعن علماؤنا كثيرا بالبحث في "حقيقة العقل" ومعرفة ماهيَّته. وقد صرح إمام الحرمين الجويني (ت478/هـ1108م) بذلك، وأوضح أن أبرز من أولى البحث في حقيقة العقل شيئاً من العناية – من أهل السنة- الحارث المحاسبي (ت 243/هـ857م).[20] وأما الآخرون فقد كثر اختلافهم ونزاعهم في أمور لا طائل تحتها كالبحث في كون "العقل" عرضاً أو جوهراً[21] والجدل في العلاقة بينه وبين النفس والروح وغير ذلك، وأفضل من تناول الحديث في "حقيقة العقل" ففيما اطلعت عليه

[20] أبو عبد الله الحارث بن أسد العتري المحاسبي، ولد بالبصرة 165هـ وتوفي 243هـ/ 857م.

[21] إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: البرهان في أصول الفقه (تحقيق د.عبد العظيم محمود الديب) القاهرة: دار الوفاء ، 1992، ج1،ص 95.

للمتقدمين- الإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ)،[22] فقد أوضح أن العقل يطلق على معان أربعة هي:

الأول- الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وبه يكون الإنسان مستعداً لقبول العلوم النظريَّة، وتدبُّر الصناعات الخفيَّة الفكريَّة. وهو الذي عرَّفه الحارث المحاسبي بأنَّه: "غريزة يتهيّأ بها الإنسان لإدراك العلوم النظريَّة" (أي التي تحتاج إلى نظر وتفكير)

الثاني- العلوم الضرورية (البديهيّة) التي تظهر لدى الإنسان حين بلوغه سن التمييز، فيدرك جواز الجائزات العقليَّة، واستحالة المستحيلات ووجوب الواجبات.

فالإنسان السويُّ عندما يبدأ التمييز، يدرك أن الكل أكبر من الجزء، وأن الواحد أقل من الاثنين، وأن الشخص الواحد لا يمكن أن يكون في مكانين في آن واحد، وأن كل حدث لا بد له من محدث.

---

[22] أبو حامد الغزالي، معيار العلم، ط دار المعارف، القاهرة، 1961م.

الثالث- مجموعة الخبرات والمعلومات التي يستفيدها الإنسان من التجارب، وملاحظة السنن والنواميس، ولذلك يقال للإنسان ذى التجارب: إنَّه عاقل، ولقليل الخبرات: إنه غمر أو جاهل!! ولعله المراد عند الإطلاق في وقتنا هذا. وضمنه "الرابع"، وهو:

الرابع- ملكة الانضباط والسيطرة على النفس نتيجة العلم بعواقب الأمور وحقائق الأشياء، ونتائج الأعمال أو الأقوال، فيقال للقادر على السيطرة على نفسه وكبح جماح الضار من نوازعه وشهواته، المتحكم بدواعي إقدامه وإحجامه: إنَّه إنسان عاقل.

ففي الأول والثاني يظهر جانب الفطرة والموهبة وأصل الخلقة، وفي القسمين الثالث والرابع يظهر جانب الكسب. وقد نسب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – عليه السلام – قوله:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع

ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

وفي الأقسام الثلاثة: الأول والثالث والرابع مجال كبير للتعاون بين الناس كما لا يخفى، وأما الثاني فيستوي في إدراكه سائر العقلاء المميزين. وظاهر أن هذا التقسيم المعرف لحقيقة العقل يتناول العقل الذي هو الآلة أو الغريزة أو أداة الإدراك، والمعقول أي: ما يستفاد بالعقل، فالتجارب والخبرات وما تؤدي إليه من معقولات ومعارف إنما هي معقولات مدركة، وليست جزءاً من حقيقة العقل. وملكة الانضباط والسيطرة لدى الإنسان غير داخلة في حقيقة العقل، وإن كانت ثمرة له.

ومن فوائد هذا التقسيم الذي بناه أبو حامد الغزالي، رحمه الله، أنّه تناول القسمين اللذين دارت تقاسيم الكلاميين والحكماء والنفسانيِّين حولهما وهما:

أ- **العقل النظري**، وهو ما تدرك به الأمور النظرية على اختلاف أنواعها من المحالات العقلية والواجبات والجائزات، كإدراك استحالة الجمع بين النقيضين، ووجوب العلة ليوجد المعلول، وجواز خلق الجائز وعدمه.

ب- **العقـــل العملـــي**، وهو ما تدرك به أجزاء الأشياء والوقائع ليعمل بعد ذلك على تحديد العلاقة بينـــها، والخـــروج بأحكام أو نسب خيرية ثابتة بينها[23].

مراتب الإدراك

أما مراتب الإدراك العقلي فتتفاوت على النحو الآتي:

1- العلم: وهو الإدراك الجازم المطابق للواقع.

2- الجهل: وهو الادراك الجازم المغاير للواقع.

3- الظن: وهو إدراك رجحان الطـــرف الـــراجح مـــن مدركيه.

4- الوهم: وهو إدراك رجحان الطرف المرجوح.

5- الشك: وهو إدراك متساو للطرفين.

والعلم لا يكون إلا يقينّياً. والجهـــل نوعـــان: مركـــب، وبسيط. والظن والوهم تتفاوت مراتب كل منهما بحسب قـــوة

---

(23) الغزالي، المرجع السابق، ص13.

درجات الإدراك أو ضعفها. أما المدركات العقلية أو ما تكتسبه العقول- من حيث عمل العقل فيها- فهي قسمان:

الأول: معارف ضرورية (أي بديهيـــة) تبـــده العقـــل، وتضطره إلى التسليم بها، وتحدث أحكامها فيه دون حاجـــة إلى نظر منه أو تأمل، كادراك أن الكل أكبر من الجزء، وأن الواحد نصف الاثنين.

والثاني: معارف نظريَّة مكتسبة يكتسبها العقل بعد التفكير والنظر والتدبُّر، وهي أكثر المعقولات وهي التي يتفاوت العقلاء في إدراكها.

النقل والعقل في عصر التنزيل والصدر الأول:

ليس في الإمكان العثور على خط فاصل بين العقل والنقل في فترة التنزيل، ولا مجال لتوزيـــع المـــسؤوليات والوظـــائف والصلاحيات بين "النص والعقل" لأسباب عديـــدة منـــها: أن القرآن العظيم قد استثار كل طاقات القوم العقليَّة والفكريَّـــة، وتحداهم أن يأتوا بمثله جزءاً أو كلاً فعجزوا. ولما ثبـــت لهـــم

عجزهم بعد التحدي التام، والفرصة الكاملة، واستثارة جميع إمكانات الاستجابة، لم يكن لهم بد من الانقياد والتسليم والانبهار بهذا الخطاب المعجز بناءاً ومضموناً، و لم يعد أحد يفكر إلا بتلقفه وتفهم مراميه وتطبيقه نصاَ وروحاً.

فالقرآن العظيم قد رد حيرتهم وحيرة من سبقهم من الأمم في سائر أمور الغيب التي كان العقل قد أعلن عجزه عن الإجابة السليمة عن أي تساؤل حولها، ويأسه بعد الجهود الفلسفية الهائلة لسائر الأمم من الوصول إلى إجابة شافية عنها، فإذا بالقرآن العظيم يشفي الصدور من حيرتها، وينقذ القلوب من ضلالاتها، يمكن أن تدركه بوسائلها، أو تناله بقدراتها المحدودة. فعوالم الغيب قد أصبحت من خلال نصوص القرآن العظيم كأنّها مشاهدة من خلال أبدع عرض لأحوال الإنسان منذ النشأة الأولى إلى أن تحول إلى أمم وشعوب وقبائل، وأقوى بيان لسنن الله في تلك الأمم والشعوب ومواطن العبرة والعظة في أحوالها. كما اشتمل على عرض لتكوين السماء والأرض والبحار والنهار والكواكب وكيفية تسخيرها، وغاية خلقها

وإيجادها، والعلاقة بينها وبين الإنسان.وكل ذلك يحتـاج إلى تضافر الوحي والعقل ليدرك ويفهم.

كذلك عرض لأحوال الآخرة ومشاهد القيامـة بـشكل يجعلها كأنها جزء من عالم الشهادة. وكانت آيـات الأحكـام والتوجيه الحياتيّ تأتي ضمن ذلك السياق لتوجد صورة واحـدة بين العالمين: الغيب والشهادة. لذا كان من العسير العثور علـى خط فاصل بينهما في تلك المرحلة المباركة. من مراحل "وحدة النقل والعقل".

إن هذا الدين جاء ليخرج للدنيا أمَّة تكـون خـير أمَّـة أخرجت للناس، لا لتنكفي على ذاتها؛ لأنّها أمّة مخرجة لغيرها، فكانت " أمّة خيِّرة و"أمّة وسطاً" تصلح أن تتَّخذها الأمم أسوة وقدوة وقيادة لها، تقوم على منهاج بيِّن هو أحكـم المنـاهج وأقومها وأسدُّها، وشريعة هي أصلح شريعة وأشملها وأكملـها وأعمُّها، وتصوُّر متفرّد متميّز عن سائر التصورات التي عرفتـها البشريّة في تاريخها كلّه: يصور متميّز بخصائصه، متفرّد بمزايـاه ومقوّماته، موضّح لأهم الدعائم التي ينبغـي أن يقـوم عليهـا

التصور السليم الذي يصلح أن يتحول إلى قوة دافعة في ضـــمير الإنسان، قادرة على تحريكه باتجــاه إيجــاد وتحقيـــق "الفعـــل الحضاريّ العمرانيّ" ووضع الأمّة في موقع "الشهود الحـــضاريّ" على الدنيا كلّها.

والمنهج الاسلاميّ في بناء الحياة فكراً و عقيـــدة وثقافـــة وعلماً وعلاقات ومعاملات وســـلوكاً واخلاقـــاً وتـــصرفات وممارسات، منهج ربانيٌّ أوحاه الله – تعالى- إلى رسوله- صـــلى الله عليه وآله وسلَّم- بدأت حلقاته بالترول منذ أن بدأ الرســـل يتعاقبون على هذه الأرض ينذرون أقوامهم ويهدوهم إلى صراط العزيز الحميد حتى جاء خاتم النبيين – عليه الـــصلاة والـــسلام بالرسالة الخاتمة، والمنهج الكامل، والشريعة التامة وأعلن للبشرية كلّها ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَـــيْكُمْ نِعْمَتِـــي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَـــصَةٍ غَيْـــرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المائدة:3] وأعلن للدنيا كلها ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ** ...﴾ [آل عمـــران:19]

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران:85]

لقد آن الأوان أن تتضافر جهود علماء الأمَّة على اختلاف تخصُّصاتهم للخروج من هذه الإشكاليَّة، وتجاوزها، وذلك بالعمل المشترك على ثقافة "الجمع بين القرائتين" "بمنهجيَّة معرفيَّة" وتجاوز ثقافة "الثنائيّات المتقابلة المتصارعة"؛ لتقف نخبة الأمَّة ومتعلّموها موقفاً موحّداً في إخراج الأمَّة الوسط من مستنقع التخلف والجهل والفقر والمرض والخوف والشقاق وتبديد الطاقات، وخلق الصراعات. والله الموفق.

المنهج القرآنيّ وبعض خصائصه:

فالمنهج منهاج الإسلام والشرعة شرعته. وهذا المنهاج لم ينبثق عن اجتهادات بشرية أو تصورات فلسفية وان كان الفكر البشري والاجتهاد الإنساني ضروريّين لفهم هذا المنهج أهم وسائل الأمَّة للخروج من هذه الثنائيات وتجاوزها لأنّ مقومّات هذا المنهج ما ذكرنا منها وما لم نذكر، وإدراك خصائصه

ومقوماته، ومعرفة كيفية ضبطه لحركة الحياة وتوجيهها. وربانية هذا المنهج أعطته جمله من الخصائص أهمها (التوازن) الشامل في سائر عناصر المنهج ومقوماته، وهذه الخاصيَّة قد صانت المنـــهج الإسلامي في مستويات عديدة، منها التوازن بين مصادر المعرفة: فالمنهج الإسلامي يقرر للمعرفة مصدرين: "الوحي والوجـــود"، ويتخذ من العقل والحواس وسائل أدراك. وقد يمثل العقل نفسه مصدراً في بعض الأحيان لتوليد المعارف، والإسلام – في شموله وتوازنه- لم يغفل مصدراً واحداً من مصادر المعرفة أو لم يعطــه اعتباره، أو لم يضعه موضعه اللائق به، ودرجته الجدير بها. كما لم تسمح خاصية التوازن فيه بطغيان أي مصدر علـــى مـــصدر آخر. فالوحي – وإن كان أوثق المصادر وأقواها – له مجالاتــه وميادينه، ومواضع هيمنته. والكون بما يشتمل عليه من الحيـــاة والأحياء والتجارب والخبرات والتاريخ كذلك مصادر معرفـــة – بعد الوحي- لكل منها ميدانه وإلى كل مـــصدر مـــن هـــذه المصادر وُجِّه الإنسان لتلقي المعرفة بحسبها، فهو مطالب بـــأن يتلقاها من كتاب الله المترل القرآن وكتاب الله المفتوح الكون،

في تناسق وتوازن لا تشوبه شوائب التنافي أو التعارض والتصادم: فاعتبار الوحي الإلهي المعجز الأصل الصادق المهيمن مصدراً معرفة لا يلغي دور العقل الإنساني وخيراته وتجاربه، ولا يعطل دور الإدراك البشري. كما أن وجود الكون لا يلغي دور العقل، بل يفتح أمامه أبواباً للمعرفة لا يأتي عليها الحصر.لقد ابتليت البشرية في الماضي كما ابتليت في الحاضر بركام هائل من الفلسفات والتصورات والأوهام التي جعلت منها معتقدات أثرت على توازنها في مختلف الجوانب. وقد اقتحمت تلك الفلسفات ساحة كثير من الأديان السماوية من قبل فأصابتها بكثير من الأمراض التي أفقدتها نقاءها وصفاءها وتوازنها. ولذلك استقبلت تلك الأمم الإسلام بتصوره وعقيدته ومنهجه وشرعته استقبال الأرض العطشى الهالكة للحياة فاهتزت وربت وعاد للبشرية من خلال المنهج الإسلامي توازنها واستقامتها. وبدأت مسيرة الهدى من جديد تنطلق لبناء الحياة الربانية الهادية المهتدية لتقوم في الوجود خير أمة أخرجت للناس، أمَّة الوسطيَّة والتوازن، وتنطلق نحو بناء عالميَّة الإسلام الكونيَّة ذات المنهج

المتميِّز بربانيَّته وثباته وتوازنه، وواقعيَّته وقيامه على عقيدة التوحيد الخالص.

الانحراف عن المنهج الإلهيّ:

ولكن سنن الله ماضية في كونه وخلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا ولن تجد لسنة الله تبديلا. فوقع في طور من أطوار التاريخ الإسلامي أن بدأت جملة من الانحرافات عن هذا المنهج الإلهي، وتغيَّر الأمر بعد نبوة قائمة على المنهج، وخلافة قائمة على منهاج النبوة إلى فصام بين قيادتي الأمَّة، القيادة الفكريّة العلميّة وقيادتها السياسيّة التي جاءت إثر ما يشبه الانقلاب العسكريّ القبليّ على منهاج الخلافة الراشدة في فترة كانت الحياة الإسلامية قد بدأت تحتك بقوة ببقايا الثقافات والحضارات الآفلة التي بدأ الفتح الإسلامي يعلن نهايتها.

فالفصام بين القيادتين الفكريَّة العلميَّة والسياسيَّة العسكريّة في الأمَّة الإسلامية أصاب "منهج الفكر الإسلامي" بالصميم، حيث بدأت سلسلة من المعارك والنزاع على الشرعيَّة بين

الفصيلين القائدين استعملت فيها آيات الكتاب ودلائل السنة، والتفسيرات والتأويلات والاجتهادات البشريَّة المختلفة بشكل لا عهد لمنهج النبوة والخلافة الراشدة به، ووظّفت فيها الأسلحة - كلّها- بما فيها بقايا الثقافات التي عثر المسلمون عليها في البلاد المفتوحة؛ ودخلت مع بعض المسلمين من أبنائها في ساحة الفكر الإسلامي ونسقه المنفتح. ولما اكتملت الفتوحات الإسلامية الكبرى وامتدت الرقعة الإسلامية لتضم أهم مواطن الحضارات والثقافات القديمة، بدأت حركة ترجمه واسعة النطاق لبقايا تلك الثقافات، وبرزت الاختلافات المذهبيَّة، والمقالات الكلاميَّة، والجدل الحاد بين الفرق التي لم تستطيع أن تهتدي لبناء الفكر الاجتماعيّ والمؤسَّسات القادرة على امتصاص ونفي أسباب الصراع الفكريّ من داخل الأمَّة، فبدأت بعض قيادات تلك الفرق النابتة تستدعي الفلسفة الاغريقيَّة والوثنيّات الرومانيّة والمباحث اللّاهوتيَّة المترجمة إلى ساحة الصراع والجدال بين المسلمين، وفتن بعض من عرفوا بعد ذلك "بفلسفة الإسلام" ببقايا الفلسفة الاغريقيَّة وبخاصة شروح فلسفة أرسطو الذي

لقبوه بـــ "المعلم الأول" وضموا إلى بحوثهم ودراساهم "الألوهيَّة والنبوة والخلق" وما إليها من أمور كان القرآن قد حسمها. بل لقد بذلت جهود هائلة من بعض هؤلاء للتوفيق بـــين شـــروح الفلسفة الإغريقية وعناصرها الوثنيّة وبين المنـــهج الإســـلامي والتصور الإسلامي وعقائد الإسلام، غافلين أو متغافلين عن أنَّ الفلسفة الاغريقيَّة نشأت في وسط وثنيّ مشحون بالأســـاطير، واستمدت جذورها من هذه الوثنيّة ومن تلك الأســـاطير. وأن هذه الفلسفة مسئولة إلى حد كبير عن أفساد المسيحيَّة وتحريفها بعد أن خالطتها. وأن الشراح المسيحيّين ضموا كل ذلك التراث الوثنيّ إلى المسيحيَّة بعد أن ألبسوا أولئك الفلاسفة ثياب التديُّن والتوحيد. وإذا ببعض من عرفوا بـــ "فلاســـفة الإســـلام" لم يكفهم أن يمنحوا أرسطو لقب "المعلم الأول" بل حاولوا التوفيق بين عناصر العقيدة الإسلامية وآراء ومذاهب أولئـــك الـــذين سموهم بالحكماء "ولست أدري إذا كان أرسطو يلقب بـــالمعلم الأول لهؤلاء فما هو موقع رسول الله منهم! أيعدونه معلماً ثانياً أو ثالثاً"؟

أساطيـــر حول المعرفة:

لقد ترك الإغريق أسطورة وثنيَّة حول قضية المعرفة تركت بصماها على فلسفات كل أولئك الذين تأثروا بفلسفتهم، تصور تلك الأسطورة الإغريقية كبير الآلهة (زيوس) غاضباً على الإلــه (بروميثروس) لأنّه سرق النار المقدسة أي: "سر المعرفة" وأعطاه للإنسان من وراء ظهر كبير الآلهة الذي لم يكن يريد للإنـــسان أن يعرف أو يصل إلى "سر المعرفة" لئلا يرتفع مقامه فيهبط مقام "كبير الآلهة" ويهبط معه مقام "الآلهة" كلهم، ومن ثم أسلمه إلى أفظع انتقام وحشيٍّ رهيب.[24]

كما روى العبرانيُّون أسطورة مماثلة حول الـــصراع بـــين الإنسان والإله على "المعرفة". فالفلسفات القديمـــة ووريثتـــها الفلسفة الغربية المعاصرة، فلسفة صراعيَّة لا تعرف التوازن بـــأيّ

---

[24] خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب. دار إحياء الكتب العربية/ عيسى البابي الحلبي وشركاء، القاهرة، 1965.

شكل من الأشكال، بل الصراع والثنائيَّات المتصارعة المتحاربة دائماً سداها ولحمتها.

"فالوجود" في مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق، وطبقة المادة أو "الهيولى"، والقدرة كلها من "العقل المطلق"، والعجز - كله- من الهيولى.

وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بقدر ما تأخذ من العقل، وتهبط بقدر ما تأخذ من الهيولى. فالهيولى مقاومة للعقل المجرَّد، وليست موجدة بمشيئة من العدم"[25] والصراع بين العقل والمادة من ناحية، وبين العقل والآلهة من ناحية أخرى لا ينتهي. وقد دخلت هذه التصورات الخاطئة ساحة الفكر الإسلامي فإذا بمعادلة "التوازن" الدقيق بين "الوحي والعقل" تضطرب في ذلك الوقت المبكر من تاريخنا وإذا بنا نرى بعض الفرق المسلمة بعد الافتراق تنقسم بين محقّر للعقل مقلّل من شأنه محجّم لدوره، وبين مبالغ في تقدير طاقاته وقدراته، وطغى الصوتان المرتفعان

---

[25] المصدر نفسه وكتاب (الله) للعقاد، ص137.

على صوت "الوسطيَّة الإسلاميَّة الجامعة"[26] التي جمعت بين "النقل والعقل" بتوازن عجيب جعل كلاً منهما ضرورياً للآخر ومكملا لدوره، ومعضِّداً له.

فلقد تفرد المنهج الإسلامي بهذه النظرة المتوازنة التي أخرجت "النقل والعقل" من دوائر الثنائيّات المتصارعة. وجعلت " النقل" يخاطب "العقل" ويرتاد له المواطن التي لا يحسن ارتيادها، ولا يملك أدواتها من عالم الغيب الفسيح. وجعلت "العقل" يعقل النقل ويتفهمه، ويستدل له، ويرتاد له أفضل سبل التطبيق والتتريل على الواقع فلا أحد منهما يمكن أن يكون بديلاً للآخر، ولا أحد منهما يمكن أن يغني عن الآخر. وكل منهما من عند الله – تعالى- فالنقل هبة الله تعالى للبشريَّة ليهديها سبلها ويخرجها من الظلمات إلى النور، والعقل – هو الطاقة المستقبلة للوحي القادرة على تلقيه وفهمه، والاستفادة به وتتريله على الواقع.

---

[26] المصطلح استعمله د. محمد عمارة، راجع كتابه "معالم المنهج الإسلامي"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، 1991 ص 77.

لقد حرص الإسلام أشد الحرص على حفظ العقل البشري وتربيته وحدَّد له مجالات النظر ليصون طاقاته أن تبدد فيما لم تخلق له من البحث في الغيبيَّات التي لا سبيل له إلى الوصول إليهـــا إلا بنقل ثابت صحيح، ووضع له المنهج الصحيح للنظر[27] وقد ضيَّق الإسلام مساحة الغيبيَّات التي طالب الإنسان بالإيمان بها إلى حـــد كبير، وعرض لما عرض له منها بشكل لا يمكن أن يأبـــاه العقـــل الانسانيّ أو يستعصي عليه،وبعد ذلك التفت إلى عالم الشهادة يترل عليه هداية الوحي، ويبني فيه الحضارة، ويحقق العمـــران، ويقـــوم بمهام الاستخلاف والأمانة، ويفي بعهده مع الله - تعالى-.

ولكن الإنسان ضعيف، ومن ضعفه أنـــه يفـــتن بطاقتـــه وقدراته، " ولقد فتن الإنسان بعقله، إذ استطاع أن يميِّـــز بـــين الأشياء، ويدرك خواصها ويستنبط فوائدها، ويـــشكل صـــوراً

---

(27) راجع فصل "تربية العقل" من كتاب منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب، دار الشروق الطبعة الثانية عشرة 1989، 1/75-103.

جديدة من المادة التي وجد نفسه محاطاً بها على ظهر الأرض أو في السماوات،[28] أو بناء أفكار وتصورات.

ويصور ابن حزم فتنة الأقدمين بالعقل فيقـــول:" همـــا طرفان: أحدهما أفرط فخرج عن حكم العقل. والثاني قـــصر فخرج عن حكم العقل، ولا نعلم فرقة أبعد من طريق العقل من هاتين الفرقتين، أحداهما التي تبطل حجج العقول جملة، أن صحة ما أوجبه العقل عرفناه بلا واسطة وبلا زمان ولم تكـــن بين أول أوقات فهمنا وبين معرفتنا بذلك واسطة البتة؟"[29]

ويحاول الإمام أبو حامد الغزالي تصوير المسألة كما هـــي في وقته فيقول: فإنْ قلت: فما بـــال أقـــوام يـــذمُّون العقـــل والمعقول؟ فاعلم أنَّ السبب فيه أن النَّاس نقلوا اسم " العقـــل والمعقول" إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهـــو صنعة الكلام فلم يقرِّروا عندهم أنّكم أخطأتم في التـــسمية إذ كان لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورســـوخه في

---

[28] منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب 76/1.

[29] إحكام الأحكام لأبن حزم.

القلوب فذموا "العقل والمعقول" وهو المسمى به عندهم. فأمـــا نور البصيرة التي بها يعرف الله -تعالى-، ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله - تعالى- عليه؟ وإن ذم فمـــا الذي بعده يحمد؟ فإن كان المحمود هو الشرع ففـــيم علمنـــا صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم -الذي لا يوثـــق بـــه- فيكون الشرع -أيضاً- مذموماً ولا يلتفت إلى من يقول إنَّـــه يدرك بعين اليقين، ونور الإيمان لا بالعقل، فإنا نريد بالعقل: ما يريده: بعين اليقين ونور الإيمان، وهي الصفة الباطنة التي يتميـــز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور: وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ (أي: وحدها) لتخبُّط اصطلاحات الناس في الألفاظ.[30]"

وهكذا انقسم الناس إلى فرق في هذه القضية. واضطربت هذه الحلقة الأساسية من حلقات "المنهج الإســـلامي القـــويم" ووقف فريق خلف النقل يتترسون به، ضد فريق آخر وقف وراء العقل يجادل عنه وينافح. واستدرج العقل المسلم إلى متاهـــات

[30] إحياء علوم الدين للغزالي، دار الشعب، القاهرة(د.ت).

كان الله - تعالى- قد أنقذه منها، وجاء فريق حشويٌّ يتشبَّث بألفاظ المرويّ والمنقول لا يستعين على فهمها بغير القاموس اللُّغوي، وصار العقل عنده متهماً في كل شيء حتى لم تعد له - في نظره- وظيفة أو دور غير أن يحجر عليه ويقمعه.

وفريق حكَّم العقل وافتتن به وتجاوز به حدوده، فأعطاه صلاحيَّات واسعة في الحكم على الأشياء قبل الشرع وبعده، وأغرق في فرضيَّات لم يألفها العقل المسلم فتكلم في فرضيَّة "شكر المنعم" في حالة عدم وجود الشرع أيكتشفها العقل ويوجبها أم لا؟ وفي "تكليف المعدوم" وفي "خلق القرآن" ومصدر الحكم على الفعل الإنسانيّ وتقييمه ووصفه بالحسن أو القبح أهو الشرع أم العقل؟

وافترض وقوع التعارض بين "النقل والعقل" وبعثت الثنائيَّة من جديد، وقدم العقلَ فريق، وقدم النقلَ فريق آخر، فنشأ لون جديد من البحوث والدراسات يقوم على تأويل ما توهم المتوهمون تعارضه أو تناقضه مع العقل من آيات الكتاب أو نصوص السنة في "تأويل مشكل القرآن" وفي "تأويل مشكل

الحديث" وكتب في بيان ما بين الشريعة والحكمة -جملة- من الاتصال، وكتب في "درء تناقض العقل والنقل" ولكن المسألة كانت قد تحولت إلى قضية من قضايا الفكر والعقل المسلم المستعصية تحتاج بالإضافة إلى البحث العلميّ وسائل تربويَّة تقتلع آثارها من العقل المسلم وتعيد هذه الحلقة الخطيرة إلى حالة الانضباط بالمنهج القرآنيّ لئلا تظل جرحاً مفتوحاً قابلاً للتوظيف السلبيّ في كل وقت.

وقد برزت فتنة الإنسان الحديث بعقله في عصرنا هذا، حين اشتد عجبه بنفسه وغروره بقدرته وهو يرى المخترعات الحديثة والكشوف العلميَّة، وكيف استطاع تفجير الطاقة الذريّة، وبناء الصواريخ وغزو الفضاء أصابه المس الذي أصاب (نيتشت) حين أعلن عن موت الإله ومولد الإنسان الأعلى (السوبرمان).[31]

[31] خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب 7.

ولقد كانت فتنة عمياء جعلت الإنسان المعاصر يؤلّه عقله، ويسلم له كل مقاليده ليبني "عقلانيَّته اللادينيَّة الضالة". صحيح أنَّ العقل قادر على الكشف العلميّ والاختراع، وقد يستطيع التمييز بين الخير والشر والنفع والضر، وقد يختزن من التجارب ما يمكّنه من ذلك؛ كل منها مستقلاً دون موجّه أو معين؟ ولكنّه إذا أراد بلوغ الحق والوصول إلى اليقين، فإنّه بحاجة ماسَّة دائمة إلى العون الخارجيّ يأتيه من وحي صادق يحيط بما لم يحط بعلمه، ويوجهه إلى ما فيه خيره وصلاحه ورشده، ويساعده على الاستقامة والموضوعيَّة فيما هو مظنَّة الميل الشديد.

ولقد كانت "فتنة العقل" المعاصرة أعتى وأشد من الغابرة حيث صادفت من المسلمين حالة ضعف، ومن حضارتهم حالة أفول، ومن فكرهم حالة أزمة وجمود وركود فاستطاعت أن تجتاح عامة متعلميهم، وجمهرة مثقفيهم لتضعهم في معسكر جحافل الاعتزال القديم، والتغريب الحديث لأمتهم، ولقد حاول كثير من الغيارى والمخلصين الوقوف بوجه ذلك التيَّار، لكنّ محاولات الدفاع الجزئيّ كثيراً ما تجر إلى أخطاء أو انحرافات

جديدة، فبدلاً من تأكيد "مبدأ التـــوازن" وعـــرض "المنـــهج الإسلاميّ" بشموله وعمومه وكماله وتوازنه وقاعدته العقيديّة، وتوكيد منطلقاته ومسلّماته ونماذجه المعرفيّة، وبيـــان غاياتـــه: انصب الدفاع على توكيد أهميَّة العقل، وتأويل أيّ نص حاول المغرضون أن يبيِّنوا تعارضه، أو نفي صحته أو تعسُّف حمله على أبعد المحامل أو نحو ذلك مما يجعل الأمر كأنّه معالجة مرض بدواء له مضاعفات قد تؤدي إلى أمراض أخطر وأعتى وأشد.

الدواء الذي استحال إلى داء:

لقد حاول كثير من حملة الفكر الإسلامي في الماضـــي – نسأل الله لنا ولهم المغفرة– معالجة هذا الأمر والرد علـــى مـــن اتهموا الإسلام بمثل التهم الموجهة إلى الكنيسة من التقليل مـــن شأن العقل وغمطة حقه، وإعلاء شأن الخرافة، وذلـــك حـــين واجهوا بيئة فكرية جامدة رفضت الاجتهاد وتشبَّثت بالتقليـــد، وانكرت على العقل دوره وأخذت تعتبر الاجتهاد تهمة وإبـــداء الرأي أو الاجتهاد، اقتحاماً للنار، وهدماً للدين.

وكانت جيوش الأعداء تسرح وتمرح في بـــلاد المـــسلمين فيقابلهم العلماء "بقراءة سورة يس وقراءة البخـــاري": إذا لـــزم الأمر، في المساجد وعند أضرحة الصالحين، أما مواجهة العـــدو بالجهاد والاجتهاد والإبداع فذلك قل المنادون به أو الداعون إليه.

وفي الوقت نفسه كان "العقل" في أوربا يعبد ويتَّخذ إلهاً، خاصة بعد الفتوحات العقليَّة التي جعلت ملوك أوربـــا الـــذين كانوا يحتمون بسلاطين آل عثمان، ويدفعون لهم الجزية يمتلكون البحر والبر، وتصبح كلمتهم نافذة على الجميع ومنهم حكـــام المسلمين وديارهم. لقد كانت الفلسفة العقليَّة تؤلّـــه العقـــل، وتنادي بوجوب فتح معابد جديـــدة للإلـــه المبـــدع الجديـــد - العقل- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وفي الوقـــت نفـــسه تتعرض العقائد الاسلاميَّة والتصور الاسلاميّ والمنهج الاسلاميّ لأشرس الحملات وُيتَّهم الإسلام عقيدة وشريعة ومنهاجاً بأنّـــه المسؤول عن تخلّف المسلمين، وتعطيل عقولهم وجهـــودهم،[32] وكان العلماء المنغمسون في تشقيقات فقه الحـــيض والنفـــاس

---

[32] المصدر نفسه، ص27.

والفقه الجزئي للفرد وسدنة الأضـــرحة يؤكـــدون بتـــصرفاتهم ومقولاتهم هذه المعاني. في هذه الفترة الحرجة بكل تلافيفهـــا. وهنا حاول كثيرون أن يواجهوا تلك الحالة بالتأكيد على اهتمام الإسلام بالعقل وبيان دوره في سائر جوانب الحياة الإســـلامية، واعتبار الاجتهاد العقلي حلقة من أهم حلقات المنهج الإسلامي، وفي غمرة هذه المحاولة، وفي حمى تلك المعركة الدفاعيَّة اضـــطر بعض هؤلاء - عفا الله عنهم- أن يجعلوا "العقل نِدًّا للـــوحي" لا عنصراً مخلوقاً يتكامل مع الوحي المنزل، وأعلـــن بعـــضهم أنَّ "النص" إذا تعارض مع "العقل" فيجب تأويل النّص لينسجم مع العقل فوقع هذا البعض بما وقع فيه "الطوفيُّ" وغيره مـــن تقـــديم المصلحة على النص وتحكيم العقل بالنص، ووقعوا في تـــأويلات كثيرة كما تجد بعض ذلك في تفسيرهم لبعض قـــضايا الغيـــب كالجن والملائكة وغيرها.

فقد تأثَّر تفسير الشيخ محمد عبده - عفى الله عنا وعنـــه- بهذه النظرة تأثّراً واضحاً، كما تأثَّر به تفسير تلميذه المغـــربيّ في جزء تبارك حتى صرح مرات بوجوب تأويل الـــنص ليوافـــق

مفهوم العقل، فأيُّ عقل هذا الذي يحاكم النص إليه؟[33] ألـــيس من الواجب تحديده، والعناية ببيان معناه[34].

إن المنهج الإسلامي كل لا يتجزأ وحلقاتـــه متداخلـــة لا متقابلة، والاستغراق في الجزء يلهي عن الكل، وهناك ألوهيَّة تفرد الله – تعالى- بها وبسائر خصائصها. وعبوديّة ومخلوقيّة يشترك فيها كل من عداه؛ وما عداه والعلاقة بين الله وخلقه علاقـــة الخـــالق بالمخلوق والوحي وحيه، والإنسان خلقه، والعقل بعض أدواتـــه ووسائله. فهو مناط التكليف والفهم والإدراك والتتريل في الواقع. والنّص ضابط وموجّه، ومرشد ومهيمن، ولا يتـــصور وقـــوع تعارض بينهما في الواقع ونفس الأمر، بل التعارض قد يقع حـــين يقع في ذهن الإنسان وعقله لنقص في استيعابه أو غفلة عن جانب التكامل بينها، أو نقص في الوسائل والأدوات. واستكمال ذلك من شأنه أن يزيل التعارض الموهوم أو المفترض. وأيا كان الأمـــر

[33] المصدر نفسه،ص29 وينظر نقد سيد قطب لمحمد اقبال –رحمه الله- أيضاً.

[34] لقد صرح إمام الحرمين وغيره بأن البحث في حقيقة "العقل" موضوع لم يحظ من علماء الأمّة بالاهتمام إلا ما كان من الحارث المحاسبيّ ومن إليه.

فإنّ الوحي يبقى هو المرجع والأساس، والعقل هو الذي يتلقـــاه، ويحسن فهمه وإدراكه، وتطبيقه وتتريله في الواقع الزمانيّ والمكانيّ مستفيداً بالجانب اللّغوي والفكريّ والنظـــريّ، وســـائر أدوات ووسائل فهم النصوص وتفسيرها. وكل ذلك يجعل العلاقة بينهما علاقة تكامل لا تقبل فصلاً أو انفصالاً.

لقد سيطرت – نتيجة التطرُّف في فهم هذه القضية مـــن قضايا المنهج في إيجاد ثنائيّة ما كان لها أن توجد- وجملـــة مـــن المفاهيم الخاطئة أدت إلى اختلال واضطراب حلقات أخرى من حلقات المنهجيَّة الإسلاميَّة كحلقة "اختيـــار الإنـــسان" الـــتي استبدلت بمفهوم "الجبر" والتواكل، وحلقة الـــسببيَّة والتعليـــل؛ لأنّها بعض جوانب النشاط العقليّ كما اضطربت الرؤية، وقيمة الفعل الإنسانيّ ومصدرها وغير ذلك من أمور لا بد من تلافيها واستدراكها، والرجوع إلى القرآن المجيد فيها.

الجـــــواب الثالـــث:

هذه المسألة لها في تراثنا الأصوليّ في أصول الدين وأصول الفقه موقع لا يقل كثيراً عن موقع "إشكاليّة العقل والنقل". وقد

اعتاد علماء "أصول الفقه" أن يتناولوها في مباحث الاجتهاد، واشكاليَّتنا هذه تدور - عندهم - في مسائل، منها:

1- هل يجوز الاجتهاد في الأصول. وإذا جوزناه فهل يعد كل مجتهد فيها مصيباً؟ ولهم في ذلك مذاهب وأقوال.

2- الكلام في تصويب وتخطئة المجتهدين في الأحكام الشرعيَّة الفروعيَّة.

3- في تفريعات على القول بتصويب جميع المجتهدين.

وهذا النوع من التراث ينبغي لطالب العلم أن يكون على إطلاع جيِّد عليه، وأن يتفهَّمه ويتواصل معه ويبني عليه، ويصبر على لغته وأساليبه، فهو القديم الجديد الذي يعكس خلاصات "للفكر البشريّ المؤسلم" إن ساغ التعبير في تلك القضايا الهامَّة. إذا تبيَّن ذلك فنقول:

إن هذه الإشكاليَّة - هي "إشكاليَّة الإنسان مع الحقيقة"!! فالإنسان مفطور على طلب "الحقيقة"، باحث عنها، ساع إليها لا يستريح دون الوصول إليها، فهو بطبيعته البشريَّة "طُلَعَةٌ"

وهذه الطبيعة هي التي تحمله على البحث والنظر والتتبُّع لعله يستجيب بذلك إلى ما تريد هذه الطبيعة منه. وحين ينشأ في ذهنه سؤال مّا فإنّه يظل يلح عليه حتى يصل إلى جواب، ولن يستريح إلى أيّ جواب؛ بل لا بد أن يكون الجواب مقنعاً كافياً شافياً. قادراً على إسكات ذلك الصوت الداخليّ الملح المزعج فإذا حصل على الجواب، واطمأن إلى صحَّته ودقته وسلامته، شعر بما كان يسمّيه المتقدِّمون "بالثلج" أو "برد اليقين" فإذا تمكن من البرهنة عليه، والاستدلال له صار عنده حقيقة أو حقاً- أيّ: أمراً ثابتاً. فإذا ضم إلى ثبوته لديه تصوّراً بأنّ غيره فاتته هذه الحقيقة فلم يصل إليها، ولم يتمكن من إدراكها تحولت إلى "حقيقة علميَّة دوجماتيَّة" وقد يصل يقينه بما توصَّل إليه إلى مستوى الشعور بأنّه قد حاز "الحقيقة" -كلّها- وامتلكها. وهنا يبدأ ينظر إلى كل من يخالفه على أنّه مخطئ أو مبطل يحتاج إلى من يصوبه، وينقذه من الخطأ أو الباطل. ويبدأ بتحديد مواقفه من ذلك المخالف بحسب شخصيَّته، وآيديولوجيَّته ورؤيته الكليَّة، وثقافته، وسائر المؤثِّرات التي تؤثِّر في صياغة موقفه من

هذا المخالف. فقد يخاصمه، أو يحاربه أو يقاطعه. المهم أنّه يصبح – في نظره– الآخر المخالف. الخاطئ، أو المبطل أو الضال أو المنحرف أو المرتد، أو المجرم أو المعادي...أو...أو... أو غير ذلك من أوصاف تدفع كلاً منهما إلى أن يكون في شق غير الشق الذي يكون الآخر فيه.

ولذلك فإنّ الذين انتسبوا إلى الفرق الاسلاميَّة بعد افتراق الأمَّة شرع بعضهم يكفّر البعض الآخر مما حمل علَماً من أعلام الأمَّة هو الإمام الشافعيّ أن يقول: "... لا تتجادلوا في الكلام فإنّكم إن تجادلتم في الكلام كفّر بعضكم بعضاً. فإن كان لابد من الجدال فتجادلوا في الفقه فإنّ قصارى ما تفعلون أن يخطّئ بعضكم بعضاً"[35]، لأن موضوعات "علم الكلام" عقديَّة يقود الاختلاف فيها إلى تكفير المخالف. والموضوعات الفقهيَّة فروعيَّة لا يحتمل الاختلاف فيها أكثر من التخطئة.

ولتلخيص ما لدى علماء" أصول الفقه" في هذا الشأن نورد مايلي:

---

[35] راجع آداب الشافعي ومناقبه بتحقيق شيخنا عبد الغني عبد الخالق.

1- اتفق علماء الأمَّة على أنّه لا اجتهاد في "أركان العقيدة وقضاياها" فلا يقبل قول من يقول - مثلا-: "اجتهدت فأوصلني اجتهادي إلى أن الله غير موجود، أو أن هناك إلهين اثنين، أو نفى النبوة... أو أي أمر يتعلّق بالاعتقاد قطعاً"؛ لأنّ هذه الأمور لا تحتمل إلا وجهاً واحداً هو الحق، وكل ما عداه فهو باطل وضلال. "فماذا بعد الحق إلاّ الضلال" ومع ذلك فقد وجد في أمَّتنا العظيمة من يرى أنّ الاجتهاد حتى في هذه الأمور جائز، وأنّ كل مجتهد فيها مصيب!! وأن اجتهاد المجتهد في هذا ينفي عنه الإثم لو اجتهد وأخطأ، ويخرج بذلك الاجتهاد من عهدة التكليف.

ذهب إلى ذلك الجاحظ عمرو بن بحر (ت:255هـ) وعبيد الله بن الحسن العنبريّ (ت:168هـ) وكان قاضياً ومحدّثاً إلى أن مات لم يعزل عن القضاء ولم يشكك في صدقه، والأخذ بروايته. ونقل ابن حجر أنّه رجع عن قوله هذا بعد حوار دار بينه وبين الإمام عبد الرحمن بن مهدي (ت:في المسألة، أطرق في نهايته ساعة يفكر ثم رفع رأسه، وقال: " إذن أرجع وأنا صاغر،

لأنّ أكون ذنباً في الحق أحبُّ إليَّ مــن أن أكــون رأســاً في الباطل"[36] ولم يهمل أحد مذهب الرجلين وأداروا حوله حواراً مازال يتناقل في أوساطنا.

أولئك آبائي فجئني بمثلهــم

إذا جمعتنــا ياجرير المجامــع

2- اختلاف الأصوليّون في "تصويب المجتهدين في الأحكام الفقهيّة" وما أروع ذلك الاختلاف، وما أجمل تحاورهم فيــه. وأتمّنى لو أنّ مثقفينا ومتعلمينا وأصحاب الرأي والحل والعقــد فينا اطلعوا على ذلك وفقهوه. وخلاصة ما يستفاد من بحثهم في الآراء العامَّة خارج الدائرة الفقهيَّة التي خصَّصوا هذا البحث لها: مما ورد في حواراتهم تلك أن الحقائق المبثوتة في الكون والحيــاة مثل كنوز مدفونة يعثر عليها من يعثر بالاتِّفاق (أي: المــصادفة) أو بأدلّة وعلامات يجعلها الله - تعالى- دالّة على تلك الحقــائق، يصل الإنسان إلى تلك العلامات والأدلّة بجهد واجتهاد لا بد له

---

[36] انظر المحصول في علم أصول الفقه للإمام الرازي بتحقيقنا ط.ثانية مؤسسة الرسالة(29/6)

من بذله قد يؤدي إلى الوصول إلى تلك "الحقيقة"، وقد يخطئها، وفي كل الأحوال فإنّ العبرة بما يحدث له من غلبة الظن بأنّه قد بلغ "الحقيقة"، أو أن هذا أقصى الجهد الذي يستطيع أن يبذله لبلوغ ذلك. و"اليقين" نادر الحصول في كل ما هو من قبيل "الاجتهاديّات". وفي مجالات العلوم الاجتماعيَّة والسلوكيَّة، بل حتى في العلوم الطبيعيَّة تسود الآن "الاحتماليَّة" وعلى هذا فلم يعد ممكناً أن نقول في مجالات البحث والنظر: ما وصلت إليه هو "الحقيقة المطلقة" التي أصبتها وأخطأها غيري. بل أقصى ما يمكن أنّ يقوله الباحث: ما وصلت إليه هو ما بلغته طاقاتي، وغلب على ظنّي أنّه الصواب من وجهة نظري. وغيرك سيقوم بمثل ما قمت به وسوف يحصل على ظن غالب قد يوافقك فيه، وقد يخالفك، والذي يمكن أن يرجِّح رأيك أو رأيه هو الحوار بينكما للوصول إلى قناعة مشتركة بما وصل إليه أحدكما، فإذا لم تصلا لتلك القناعة فينبغي أن يعذر كل منكما الآخر.

والذي يساعد على هذا النوع من التسامح والفهم المشترك اقتناع كل إنسان بنسبيَّته، ومحدوديَّة علمه وقدراته مهما بلغت.

واليقين باستحالة إحاطة الإنسان إحاطة تامَّة "بالحقيقة المطلقـــة". "فالحقيقة المطلقة" علمها عند ربِّي. و"الحقائق المطلقة" التي أمرنـــا بالإيمان بها محدودة جداً، والإيمان بها جاء بطريق الـــسمع مـــن الوحي، لا بطريق الإحاطة العلميَّة الانسانيَّة. ويقيننا بها وإيماننـــا بكونها "من الحقائق الثابتة" لا يعني أن من حقّنا أن نفرض علـــى الآخرين الإيمان بها، واليقين بثبوتها تقليـــداً لنـــا؛ لأنّ "القـــضايا اليقينيَّة" لا تؤخذ بطريق التقليد، بل لا يقبل التقليد فيها.

وهنا لا ينبغي أن ننظر إلى من يخالفنا في إيماننـــا بتلـــك الحقائق ويقيننا فيها على أنّه يستحق بذلك أن يكـــون موضـــع بغضنا وكراهيَّتنا أو ازدرائنا له، بل ينبغي أن نتبيَّن زاوية النظـــر التي نظر منها إلى هذه القضايا، وننشئ حواراً هادئاً حول ذلك لنبيِّن أن "منهج النظر" هو موضوع الحوار وليست الحقائق ذاتها، فلو أمكن إجراء تعديل في "منهج النظر" لأمكن الوصـــول إلى نتيجة يمكن الاتفاق عليها. وبذلك نجعل "المنهج" موضع الحوار مع المخالف، لا الحقائق ذاتها، فتكون نظرتنا إليه -آنذاك- غـــير نظرتنا إليه حين يكون محور الحوار تلك "الحقائق المطلقة"- ذاتها-

وهنا يمكن الاستفادة من إعادة ذكر قصة الإمـــام أبي القاســـم الأنصاري حين سئل عن "تكفير المعتزلة" في تبنّـــيهم لقاعـــدة "التحسين والتقبيح العقليِّين" وما ترتّب عليها؟

فقال: "لا؛ لأنّهم (أي: المعتزلة) نزَّهوه. فسئل عن تكفير "الأشاعرة أو أهل السنَّة عامَّة" بأقوالهم المختلفة التي تـــردَّدت في جدالهم مع المعتزلة- مثل قول بعـــضهم "بـــالجبر والاضـــطرار" المصادم لكثير من آيات الكتاب الكريم؟ فقال أبو القاســـم: "لا لأنّهم عظّموه" فجمع بين الفريقين الـــذين تناقـــضت أقـــوالهم ومذاهبهم بأنّهم – جميعاً- كانوا يهدفون إلى إثبات جـــلال الله وعظمته وتنزيهه. وذلك موضع اتفاق بينهم، وأرضيَّة مـــشتركة يقفون -معاً- عليها؛ لكن زوايا النظر قد اختلفت، و" منـــهج النظر" لم يكن واحداً فاختلفوا: فالمعتزلة وقـــع نظـــرهم علـــى "جانب الحكمة" التي لا بد من ملاحظتها؛ لأنّها اللائقة بـــأوامر الله ونواهيه- وإن أدّى المنهج الخاطئ في ملاحظتها إلى "القـــول بوجوب الأصلح عليه تعالى".

والسنَّة لاحظوا جانب "عظمة الله - تعـالى-" والمنـهج الخاطئ في النظر إلى عظمة الله قادهم إلى التصور الخاطىء بـأن "فعل الإنسان" مخلوق الله - تعالى- وفسَّروا هذه المخلوقيَّة بـأنّ الإنسان مُجبَر على القيام به، مضطر إلى ذلك؛ فإثبات أيّ فاعل - من وجهة نظرهم- سواه كأنّه إشراك لذلك الفاعل معـه في الفعل والتصرّف، وذلك مناف -من زاوية النظر تلك- وبذلك المنهج للإيمان "بعظمته ووحدانيَّته". وهذا أمر هـام في إشـاعة روح الفهم لمواقف الآخرين، وإيجاد روح التسامح، وخفـض حدة الاختلاف والله أعلم.

الجـواب الرابـع:

لا تناقض - عندنا- في وجود أزمات ومشكلات كبيرة في عصر من العصور، وبروز شخصيّات علميَّة هامَّة ومتميِّزة بالرغم من ذلك في تلك العصور لأسباب عديدة؛ منها:

1- إنّ الذين حكموا في بلاد المسلمين عبر العصور قبـل الاحتكاك بالغرب والتداخل معه، كانوا يتنافـسون في تعزيـز "الأوقاف والحبوس"؛ لأنّ كلاً منهم يحاول أن يُرِيَ الأمَّة أنّـه

خير من سواه من الحكام سواء أكانوا من معاصـــريه، أو مـــن سابقيه. فيكثرون بناء المساجد والمدارس، والمستشفيات وغيرها مما ينفع الناس وتشتد حاجتهم إليه. ويتبنّون لـــذلك مـــشاهير العلماء ويشجعونهم، ويعقدون أحياناً بحضورهم، وبتشجيع منهم جلسات الحوار العلميّ، وحلقات النقاش المعرفيّ. فكان ذلـــك عاملاً من عوامل" النهضات العلميَّة" و"التنافس العلميّ"، يتجاوز تلك الجوانب السلبيَّة الأخرى في حياة الأمَّة من فرقة وتـــشرذم، واختلاف قد يصل إلى حدّ التقاتل، والصراعات، والانقلابات- كما حدث في مختلف الفترات التاريخيَّة. وفي ظل ذلك قد يـــبرز علماء كبار في مختلف فروع المعرفة أمثال الكثيرين من الأئمـــة والعلماء الذين حفل تاريخنا بهـــم، وكـــانوا دعـــائم أساســـيَّة لحضارتنا، وانعكست جهودهم على حضارة العالم اليوم، ومـــا سبقها ومهّد لظهورها.

2- إنّ كثيراً من عقلاء الأمَّة حين يجدون أن الأزمات قد أحاطت في ديارهم يلجأون إلى الهجرة إلى بلدان مسلمة أخرى قد تكون خالية من تلك الأزمات. أو أن فيها حكاماً لهم عناية

أكبر في "العلوم والمعارف والعلمـــاء والمـــدارس".أو يعتزلـــون ليتفرّغوا في بعض الأماكن البعيدة نسبيّاً عن بؤر الأزمات للتعليم والكتابة فيكونون بذلك قادين على تحقيق انتعـــاش في المجـــال المعرفيّ يقلّل من خطورة الأزمات الأخرى.

3- شيوع ظواهر إيجابيَّة كثيرة، ووجود حواضر علميَّـــة شكَّل عاملاً من عوامل "الازدهار العلميّ"، فقد كانت "الرحلة في طلب العلم" والاعتداد" بكثرة شيوخ العالم" لبيان دراســـته على المشاهير، واقتران اسم الناشئ بأسماء أكابر العلماء، ومـــا غرسه القرآن المجيد في عقول وقلوب المسلمين من حب للعلـــم والمعرفة واعتزاز بهما يجعل الرغبة في طلب العلم أهم واكبر من أن تفتر أو تضعف نتيجة الأزمات. لذلك فـــإنَّ طلبـــة العلـــم - اليوم- وأساتذتهم وجامعاتهم مسئولون مسئوليَّة مباشرة عـــن بعث وإحياء تلك الظواهر الايجابيَّة، والمشاركة في إنهاض الأمّـــة ومساعدتها على اجتياز حواجز الأزمات التي تحيط بها ليصبحوا جزءاً من الحل، لا جزءاً من الأزمة. ونحن ندرك صعوبة ذلـــك، ولكن لا بد من التفكير في حلول ممكنة يقوم بها الأكـــاديميّون

أنفسهم. قد يكون من بينها تنويع التعليم، والاهتمام بربطه بالجوانب العمليّة، والتدريبيَّة، ومشاركة مؤسَّسات المجتمع المدني والقطاعات الخاصَّة برسم وتوجيه بعض السياسات التعليميَّة والتدريبيَّة، وإيجاد مواسم لالتقاء علماء الأمَّة بعضهم ببعض.

وعلماء الأمّة - على اختلاف تخصّصاهم- مطالبون بالحيلولة دون هجرة العقول أو نزيفها إلى خارج بلاد المسلمين. لضرورة العمل، ومقاومة روح اليأس من تصحيح أوضاع بلداننا، ووضعها – من جديد- على طريق الحضارة والعمران بإذن الله.

الجواب الخامس:

النماذج المعرفيَّة: PARADIGMS ارتبطت "النماذج المعرفيّة" باسم توماس كوهن. وهو يطلقه على "مجموعة متآلفة منسجمة من المعتقدات والقيم والنظريَّات والقوانين والأودات والتكنيكات والتطبيقات". والنموذج المعرفيّ نموذج تفسيريٌّ يستعان به لتفسير بعض الظواهر، أو الحقائق، ويساعد الباحث

في التعامل مع بعض المعلومات او العوامل المؤثّرة في الظاهرة موضوع البحث.

وإذا أردنا الاستفادة من "النماذج المعرفيَّة" في دراساتنا الاسلاميَّة، ومعارفنا النقليَّة فذلك أمر حسن ومفيد، بل لعله السبيل الوحيد المتاح لإحداث تجديد ونقلة نوعيَّة في هذا الجانب من جوانب المعرفة، لكنّ ذلك يتوقف على شروط:

الشرط الأول: أن يدرك أصحاب كل تخصّص من هذه التخصّصات سواء أكانت من تخصّصات الوسائل مثل علوم اللّغة العربيَّة والمنطق، أو من تخصّصات علوم المقاصد مثل التفسير والحديث والأصلين والفقه أن أحوال هذه العلوم في وضعها الراهن غير مرضية، ولا مقنعة، وأنّها قد ركدت وتوقف العطاء فيها عند القرن الخامس الهجري تقريباً. ولم يحدث بعده فيها – على الجملة– تطوّر يذكر. وبالتالي فلابد من البحث عن وسائل كفيلة تمنح هذه المعارف قابليَّة الحركة والانطلاق والتجدّد، والحصول على إضافات جديدة فيها تعطيها صفة المرونة والقدرة على استيعاب المستجدات. بحيث يؤمن أصحاب

كل تخصّص من هذه التخصّصات بهذا، ويثبتون صدق وعـــيهم بأزمة تخصّصهم بالبحث الدائب المستمر للخروج به من "أزمـــة التوقّف" إلى حالة الانطلاق.

الشرط الثاني: أن يتخلّص أصحاب كل تخصّص من هذه التخصّصات في التفسير والحديث والأصولين والفقه، وكـــذلك علوم الوسائل من فكرة ارتباط العلم أو التخـــصُّص وتجديـــده والنهوض به بجهود وأفكار أفراد عباقرة. ويستيقنوا أن هذا النوع من الجهود لابد أن يكون جهداً جماعيّاً تقوم بأعبائـــه "جماعـــة علميَّة" هي مجموعة التخصّص. ويكون لدى هذه المجموعة مثل المتخصصين بالفقه أو بالأصول أو ما إليها قدرة علـــى تحديـــد مواصفات المتخصّصين لتدريب طلبة الدراسات العليا وتنشئتهم على ذلك التصور. بحيث يتكون لدى هذه الجماعـــة العلميَّـــة تقاليد بحثيَّة شائعة بينهم، وطرائق تفكير وممارسة تساعد في إنماء الحقل المعرفيّ، وتصحيح مساره، وإحداث حالة التجدّد فيه.

الشرط الثالث : التسليم بمبدأ تطور هذه العلوم، وضرورة تمكينها من الانتقال من مرحلـــة إلى أخـــرى، وجعلها قـــادرة

- باستمرار- على تقديم حلول للمشكلات والمعضلات العلميَّة التي تبرز في تلك الحقول أو تصيب الممارسات المنطلقة منـــها. وإدراك أن "النماذج المعرفيَّة" التي حدّدت في ظروف معيَّنة وفي عصر محدّد لا تستطيع الاستمرار في الإنتاج في عصور لاحقـــة؛ إذا لم يتم تحديد النماذج والمناهج المتبَّعـــة في التعامـــل معهـــا. والتخصّص أيّ تخصّص يعتبر في حالة نمو وحياة مادام قادراً على معالجة مشكلاته. أمّا القناعة بفشل تخصّصٍ مّا فإنّهـــا تحـــدث عندما تحدث القناعة بعجز ذلك التخصّص عن معالجة الجديـــد- أي: ما استجد بعد مرحلة التوقُّف. وبعجزه عن الكشف عـــن جذور المشكلات الحادثة وتحليلها وتفسيرها بصورة فعّالـــة. ثم اهتزاز قناعة جمهرة المتخصّصين بذلك التخصّص فيه. - وآنذاك يظهر- نموذج معرفيّ جديد- يقوم بهدم القـــديم والتـــشكيك في أسسه ومسلّماته ليحدث تغييراً ثوريّـــاً -آنـــذاك- في القواعـــد الأساسيَّة، ومراجعة صارمة لها. وإعادة صـــياغة الافتراضـــات الكبرى للنظريّات السابقة التي قام الحقل المعرفيّ المعيَّن عليهـــا. كالتحوُّل الذي يمكن أن يحدث لعلم "أصول الفقه" كما جاء في

رسالة الإمام الشافعيّ وما يحدث له حين يتقرر الانتقال عنها إلى "أصول فقه الشاطبيّ" أو أبن عربيّ مثلاً. وعندما يتحول أهل التخصّص إلى نموذج معرفيّ جديد، فإنّ النظريات القديمة لا ينظر إليها - بالضرورة على أنّها كانت خاطئة، لأنّها طبقت على حالات وظواهر جرى تفسيرها بدقة في تلك المرحلة فلبَّت احتياجات ذلك الوقت. فهي صحيحة مادام تطبيقها محدّداً بتلك الظواهر التي تعاملت معها في السابق. فإذا أريد نقلها إلى العصر الراهن فتجب إعادة صياغتها، ونقلها، وذلك ليبنى عليها، ولتضم إلى النموذج الجديد.

وما ذكرناه قد يوحي بأنّ الانتقال من نموذج قديم إلى آخر جديد في هذه الحقول سيكون سهلاً. والأمر ليس كذلك؛ لأنَّه يعتمد على وسائل وعوامل كثيرة، ويحتاج إلى كفاءآت نادرة، وقد يستغرق الانتقال من نموذج إلى آخر أجيالاً ليأتي جيل علميّ قد تأسّس "بالنموذج الجديد".

تعريـــف النمـــوذج:

إنَّ من الصعب تعريف "النموذج" ذلك أنّ توماس كوهن الذي يعد المؤصِّل الأول "لنظريَّة النماذج المعرفيَّة" قد اســتخدم هذا المفهوم باثنتين وعشرين دلالة [37].

وإذا أخذنا النموذج بالمعنى الذي قدمناه، وهو: "مجموعــة متآلفة منسجمة من المعتقدات والقيم والنظريّـــات والقــوانين والأدوات والتكنيكات والتطبيقات يشترك فيها أعضاء مجتمــع علميّ معيَّن وتمثّل تقليداً بحثيّاً كــبيراً، وطريقــة في الــتفكير والممارسة، ومرشداً أو دليلاً يقود الباحثين في حقـــل معــرفيّ يعملون فيه" [38].

فإنَّنا نستطيع القول بأنّ "النموذج المعرفيّ الأكبر" في العلــوم النقليّة أنّه نموذج معرفيٌّ قائم على "العقيدة الإســـلاميَّة والتـــصوّر الإسلاميّ والرؤية الكليَّة الاسلاميَّة للكون والإنسان والحياة، وما

---

(37) نظريّات السياسة المقارنة ومنهجيَّة دراسة النظم السياسية د. نصر محمد عارف. ط أولى/ جامعة العلوم الاسلاميَّة والاجتماعيّة 1998.

(38) المرجع نفسه.

انبثق عن ذلك - كلّه- من قيم وضوابط وقوانين وأدوات بحث اشترك فيها علماء المسلمين الذين قادوا جيل الرواية وجيل الفقه، وتكونت بجهودهم العلوم والمعارف التي تأسّست - أصلاً- لخدمة القرآن المجيد، وخطابه ألفاظاً ومعاني وأحكاماً وتاريخاً وتوثيقاً وبياناً وضبطاً وتطبيقاً. و"النموذج المعرفيّ" نسبيٌّ مهما بلغت قدراته التفسيريَّة والاقناعيَّة. وقابليّاته في معالجة المشكلات البحثيَّة.

وإذا كان هناك نموذج معرفيّ أكبر يصلح أن يعد نموذجاً لمجموع "العلوم النقليّة" سواء علوم المقاصد منها أم علوم الوسائل فإنّ من الممكن أن يكون للمحدثين نموذجهم، وللمفسّرين نموذجهم وكذلك الحال بالنسبة للفقه والأصولين.

و"للنموذج المعرفيّ" تأثير مزدوج؛ إذ أنّ أثراً إدراكيّاً معرفيّاً COGNITIVE وأثراً آخر معياريّاً NORMATIVE فبالإضافة إلى ما يشتمل عليه من مقولات حول "الطبيعة والواقع" فإنّه يحدّد نطاق المشاكل التي يباح البحث فيها، ويحدّد المناهج المقبولة للاقتراب من تلك المشاكل ويضع مستويات للحلول... وتحت تأثيره يعاد تعريف أصول العلم في الحقل الذي

ظهر فيه بصورة جذريَّة قد يجعل من بعض المـــشكلات- الـــتي اعتبرت في السابق جوهريَّة وخطيرة- غير ذات معنى، أو غـــير علميَّة، وقد تلحقها بحقول معرفيّة أخرى.

وقد تتحول قضايا سبق اعتبارها غير موجودة، أو ليست مهمة إلى قضايا علميَّة ذات دلالة"[39] هامّة.

وهذا يلقي على المتخصِّصين والباحثين في هذا النوع مـــن المعرفة عبئاً كبيراً لتحديد "النموذج المعرفيّ" المناسب للتعامـــل معها يتضح هذا في المطالب التالية:

1- تحديد "الرؤية الكليّة" بدقة "وإدراك الواقع" وتحديـــده بنفس المستوى.

2- تحديد أسئلة وإشكاليّات ذلك التخـــصُّص، ونطـــاق القضايا التي تندرج فيه، وتدخل تحت قضاياه.

3- تحديد المنهج أو المناهج المقبولـــة للبحـــث في تلـــك المشاكل.

---

(39) المصدر السابق (50-51)

4- كما أنّ عليهم أن يحدِّدوا مستوى الحلول، أي: مـــتى يعتبرون أن المسألة قد حُلَّت، وبلغت غايتها.

لقد حدَّد بعض علماء العلوم الاجتماعيَّة "النماذج المعرفيَّة" المناسبة للتعامل مع حقل تخصّصهم في بنية تتألف من عناصـــر خمسة هي:

1- العصر المفاهيميّ: CONCEPTUAL ELEMENT

وهي منظومة المفاهيم التي تستخدم في صياغة الفـــروض النظريَّة بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وتستنبط مـــن الحقـــل المعرفيّ نفسه.

2- العنصر النظري: THEARETICAL ELEMENT

لمفهوم "النظريَّة" استخدامات عديدة في العلوم الاجتماعيّـــة ولذلك يسعى أصحاب كل تخصّص لبيان ما يقصدون "بالنظريَّـــة" عند استعمالهم لها. ولعل من أقرب معانيها فيما يتـــصل "بـــالعلوم النقليَّة" أن يراد بها في هذه الحقول: "مجموعة فروض أو (مـــسائل) مترابطة في بناء منطقيّ يعطي كل مفردة فيه وضعها في ذلك البناء".

ولعل من الممكن التمثيل لها في "نظريَّة الملكيَّة" في الفقه و"نظرية العقد" وما إليها.

3- قواعد التفسير: RULES OF INTERPRETATION

وهي القواعد التي تحدِّد العبارات اللُّغويّة التي يمكن استعمالها في وصف الظاهرة التي تتم ملاحظتها. والعلوم النقليَّة أحوج أنواع المعارف إلى اتخاذ قواعد لتفسير العبارات المتداولة في كل حقل؛ إذ كثيراً ما يجد الباحث نفسه في ميدان واسع من معان تتأرجح بين اللُّغوي والاصطلاحيّ والعرفيّ والحقيقيّ والمجازيّ، والمترادفات وما إلى ذلك.

4- عنصر تحديد الإشكالات والمعضلات الأجدر بالتناول PUZZLING ELEMENT

وهذه العنصر يشكل القاعدة التي ينطلق منها أصحاب التخصّص للاستفادة من نموذجهم المعرفيّ لتحديد سلّم أولويّات المشاكل البحثيّة التي تستحق الدراسة.

5- عنصر التحكم التكوينيّ ONTOLGIC -PERDICTIVE

وهو عنصر الضبط في النموذج المعرفيّ.[40]

هذا فيما يتعلّق بالشق الأول من السؤال، وفيه اتـضحت أهمِّيَّة النماذج، وحقيقتـها ووظائفهـا ومكوناتها، وحاجـة التخصّصات المختلفة إليها. وإذا كانت قد استعملت أصـلاً في مجالات العلوم الطبيعيَّة فإنّ علماء الاجتماعيّات قد أكدوا على أهمِّيَّة استخدام "النموذج المعرفيّ" مدخلاً لدراسـة "نظريّـات العلوم الاجتماعيَّة".

وبنفس المستوى نستطيع أن نستفيد "بالنموذج المعـرفيّ" مدخلاً لدراسة قضايا "العلوم النقليَّة" ودراسة وتحليل تطور هذه العلوم، وكيفيّة إخراجها من حالة التوقف.إن شاء الله تعالى.

أما الشق الثاني من السؤال فإنّه وإنّ اختلف علماء السياسة في وجود نموذج معرفيّ خاصّ بالعلـوم السياسيَّة لكنّني - شخصيّاً- على ثقة بأنّ الدول المتقدمة التي توظّف المعطيات

(40) المصدر السابق.

العلميَّة في سياساتها، وتبتعد عن الارتجال والعفويَّة والسطحيَّة وردود الأفعال. هذه الدول لا أشك أن لديها نماذجها المعرفيّة التي تحدد بمقتضاها أفضل أوجه التعامل مع نظم العالم المختلفة. والله أعلم. والحديث في هذا المر يطال ويطول.

الجـــــواب السادس:

النهج: في اللّغة هو الطريق الواضح المستقيم الذي يسلكه الإنسان للوصول من نقطـــة إلى أخـــرى. ومنـــهج الطريـــق، ومنهاجه[41] بمعنى.

أما في الاصطلاح فيستخدم "مفهوم المنـــهج" بـــدلالات متعددة يتصاعد -أحياناً- ليكون مرادفاً للنظريّـــة والنمـــوذج المعرفي. وينكمش -أحيانا أخرى- ليكون في مـــستوى الأدوات والتكنيكات البحثيّة. ويختلط -أحياناً- بالعلم الـــذي يـــدرس تكوينه وبنائه المنطقيّ والمعرفيّ ووســـائله، ويعـــرف -آنـــذاك- بالمنهجيَّة: METHODOLOGY[42].

---

(41) المفردات.

(42) نظريات السياسة مصدر سابق ص73.

وقد بدأ استخدام "مفهوم المنهج" بمعناه الاصطلاحيّ مع بداية "الثورة العلميَّة" الأوربيَّة في العلوم الطبيعيَّة خاصَّة. واستخدم في عمليات التجريب والتحويل الكميّ باعتباره منهجيَّة للتفسير والتنبوّء. ومن ثم تم ربط مفهوم "المنهج" بمفهوم "العلم" فصار يطلق عليه "المنهج العلميّ" تمييزاً لطبيعة هذا المنهج، وانطلاقاً من رؤية تدمج بين المفهومين فترى أن العلم بمنهجه.. فيكون المنهج هو:" الاجراءآت والطرق التي يتوصَّل بها إلى المعرفة، وتشمل على قواعد وخطوات الإجابة على أسئلة البحث واختبار فرضيّاته.[43]

أمّا "مسلمات ما قبل المنهج" فهي عبارة أطلقها الراحل محمود شاكر في كتابه "في الطريق إلى ثقافتنا" ولعل ما أوضحناه عن المنهج ينبِّه إلى أنَّ المراد بها تلك المسلَّمات المنبثقة عن العقيدة والرؤية الكليّة التي يحتاج الوصول إلى "المنهج العلميّ"، إذ هي موجودة قبله. وتستمر بعده.

---

[43] وهناك دراسات عديدة صدرت عن "المنهج العلمي" و"المنهجية" ومناهج البحث في العلوم الإسلامية يمكنكم الرجوع إليها.

الجـــــواب السابـــع:

في "تجديد الفقه" تناولنا الكثير مـــن الوســـائل المقترحـــة لإحداث نقلة نوعيَّة في هذا العلم الهام من علومنا النقليّة، وهي مقترحات تحتاج إلى جهود جماعيَّة من جماعة علميَّة متخصّـــصة في الفقه وأصوله والمقاصد الشرعيَّة. مع ملاحظة الشروط الـــتي تناولناها في جوابنا الخامس لبناء نموذج معرفيّ لهذا العلم يساعد في عمليَّات تجديده وإثرائه. ولدينا إضافة إلى دراستينا في "حجيَّة الرأي" وفي "الاجتهاد والتقليد" كتابنا الذي نشرته دار الهـــادي في بيروت بعنوان "مقاصد الشريعة" فهذه الدراسات كلها ذات علاقة بقضيّة "تجديد الفقه"، والإطلاع عليهـــا ســـوف يقـــدم الجواب الشافي عن هذا السؤال.

كما أن تقديمنا"للمقاصد القرآنيّة العليا الحاكمة" "التوحيـــد والتزكية والعمران" إنّما هي محاولة لبناء نموذج معرفيّ جديد للفقه. يكفل لنا عملية "تجديد الفقه" وإحداث نقلة نوعيَّة في هذا العلـــم تمكّن -بإذن الله- من تجديد، وإعادة بنائه، وجعله قادراً على تلبية احتياجاتنا المعاصرة إنشاء الله، فننصح بالرجوع إليها؛ ويمكن ضم

كل تلك الجهود في دراسة خاصة من أحد الباحثين من الـــسلك الثالث لتوضيح معالم المشروع التجديديّ للفقه كلّها.

الجــــــواب الثامـــن:

نعم قد درست وكتبت وعلّمت طلابي بأنّ "لا نـــسخ في القرآن المجيد"، وذلك جزء من عقيدتي، ولي كتاب في بيان ذلك ومذهبي فيه تجرى طباعته الآن في سلسلة "دراسات قرآنيّـــة" في القاهرة ط "مكتبة الشروق الدولية" فارجع إليه عندما يـــصدر وسيتضح لك هذا الأمر بجلاء. بإذن الله تعالى.

الجــــــواب التاســـع:

الإمام الشافعيّ في قديمه وجديده كتب الكثيرون من الذين تبنّوا مذهبه، ومن معارضيه. ومنهم الإمام النـــوويُّ في مقدمـــة المجموع، ويمكنكم الرجوع إليه.

الجـــواب العاشـــــر:

كتاب "فقه الأقليّات" قد نشر بالعربيّة والانكليزيّة في مصر وواشنطن ولندن وعليك الرجوع إليه وقرائته ففيـــه الإجابـــة المفصلة عن سؤالك هذا.

الجـــــواب الحادي عشـــر:

تجربتي وتدريسي للعلوم الشرعيّة في الشرق والغرب أعددت بعض البطاقات تمهيداً لكتابة دراسة وجيزة فيها؛ لأنّني وجـــدت فيها الكثير من الفوائد، خاصة لزملائي المدرسين لهذه المواد.

الجـــــواب الثاني عشـــر:

"المقاصد القرآنيّة العليا الحاكمـــة" التوحيـــد والتزكيـــة والعمران أصدرت الحلقة الأولى منها، وهي التوحيد، واعمل في الحلقة الثانية وهي التزكية ولعل الله يمن بإنجازها قريباً.

وقد أوضحت في تقديمي لها أنّها هي "المقاصد" الحقيقيّـــة أمّا ما جرى تداوله باسم "مقاصد الشريعة" حـــتى الآن فهـــي الحِكَم التي ذكرها الأئمة المـــذكورون في ســـؤالك للحـــدود

والعقوبات الشرعيَّة، وحاولوا الإجابة بها عن الـــشبهات الـــتي أثيرت حول تلك الحدود، فحفظ الـــنفس ربـــط بالقـــصاص والديات. وحفظ العقل ربط بعقوبة شرب المسكرات. وحفظ المال ربطت به عقوبة السرقة. وحفظ الأنساب ربط بعقوبة الزنا وحفظ العرض ربط بعقوبة القذف.

ولذلك فإنّه لم تجر لها عمليّة تفعيل تجعلها منتجة فاعلـــة لإيجاد أحكام فقهيَّة للمستجدّات.

أمّا المقاصد القرآنيَّة العليا الحاكمة فإنّهـــا محاولـــة لبنـــاء منظومة مقاصديّة متكاملة تمكن من مراجعة الفقـــه المـــوروث وتجديده، وتبعث روح الاجتهاد والتجديد والإبداع في القادرين على هذا النوع من الممارسات المعرفيَّة، وتـــسمح إن شـــاء الله بتلبية الحاجة الفقهيَّة لمستجدات الحياة.

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فهرس الموضوعات

المقدمة 5

ابن رشد الحفيد الفقيه الفيلسوف 9

المؤثرات الأساسية في مسائل الفقه 15

المؤثرات اللفظية 15

المؤثرات المعنوية 15

1-النماذج المعرفية للمجتهدين 19

2- الرؤية الكلية للكون والإنسان والحياة 19

3- العقيدة 20

4- الثقافات والأعراف والعادات والتقاليد 20

5- المنهج 21

بين القضايا الفقهية والقضايا الاجتماعية 22

المصادر الأساسية 28

خصائص الشريعة 33

أصول كلية 36

المقاصد وضرورة مراعاتها 36

الجمع بين القراءتين والاستدلال 38

الربط بين الفقه وقضايا المجتمع	40
نظرية البدعة وأهميتها	42
الأسئلة والأجوبة	50
تفاصيل الأجوبة	59
ج) 1 ضوابط التعامل مع القرآن	59
لماذا نحرص على تقرير ضوابط التعامل مع القرآن ..	67
خطورة إخضاع القرآن لمثل هذا النوع من التعامل اللامسئول	80
القرآن والتحدي	82
ج) 2 قضية العقل والنقل	86
الدراسات المعاصرة	105
حقيقة العقل	107
أ– العقل النظري	110
ب– العقل العملي	111
مراتب الإدراك	111
النقل والعقل في عصر التنزيل والصدر الأول	112
المنهج القرآني وبعض خصائصه	116
الانحراف عن المنهج الإلهي	119

أساطير حول المعرفة	122
الدواء الذي استحال إلى داء	131
الجواب 3	135
الجواب 4	144
الجواب 5	147
تعريف النموذج	152
العنصر المفاهيمي	155
العنصر النظري	155
قواعد التفسير	156
قواعد تحديد الإشكالات والمصطلحات الأجذر	156
عنصر التحكيم التكويني	157
الجواب 6	158
الجواب 7	160
الجواب 8	161
الجواب 9	161
الجواب 10	162
الجواب 11	162
الجواب 12	162



زنقة أبو عبيدة، الداوديات - مراكش
الهاتف: 74 37 30 024 / 91 25 30 024
الفاكس: 23 49 30 024